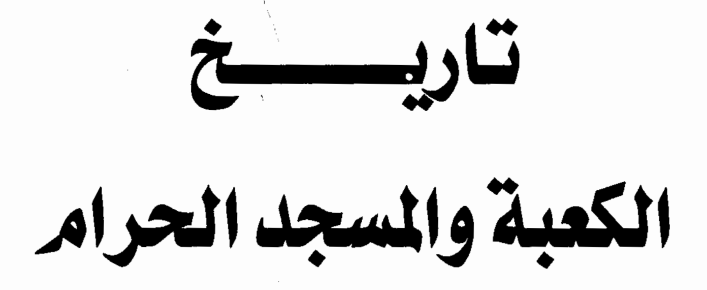


من عهد إبراهيم عليه السلام إلى الآن

تأليف
فتحى فوزى عبد المعطى



الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٠٧٠٦

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧



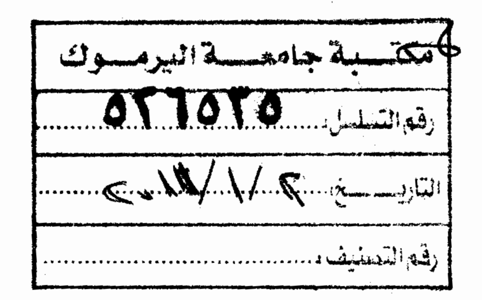
بسم الله الرحمن الرحيم

* ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

* ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

* ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

* «..وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه» [حديث شريف].







al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



هذه صفحات من تاريخ الكعبة والمسجد الحرام .. منذ إبراهيم عليه السلام حتى الآن.. أبسُطها بين يدي القارئ، ليستبينها من شاء، وليستوثق منها من يشاء ..

وقد راعيت في ذلك عدة اعتبارات وقد أهمها:

١- تسلسل الأحداث التاريخية خلال أربعين قرنًا .. تلك الأحداث التي صاحبت، أو أثرت، أو تأثرت بالكعبة والمسجد الحرام.

٢- الابتعاد بالقارئ عن الآراء والروايات التي وردت فى الكتب القديمة، بلا سند من التاريخ أو الدين، وبما لا يتفق مع المنطق والعقل، وتنقية هذه المعلومات مما شابها من أخطاء.

٣- الالتزام بالأسلوب القصصي .. قدر ما استطعت .. ذلك لما يمتاز به هذا الأسلوب من تشويق وحوارات بين شخوصه على المسرح الذي دارت عليه هذه الأحداث. مع التركيز على الشخصيات الأساسية والمحورية، بالإضافة إلى الشخصيات الهامشية، حتى يمكن تسلسل الأحداث ومتابعتها.

٤- تعريف القارئ بمعلومات عن الشخصيات والأماكن التي وردت بالكتاب، حتى يمكن توسيع قاعدة معلوماته عن هذا الموضوع.

٥- تعريف القارئ بالأماكن التي ورد ذكرها خلال متابعة الأحداث مع رسم خرائط توضيحية لهذه الأماكن باعتبارها المسرح الذي دارت عليه الأحداث.

والله ولي التوفيق

المؤلف

فتحى فوزى عبد المعطى

* * *

(١)

فرش النهار ضوءه على العالم، ذات يوم بعيد؛ فأضاء بنوره تلك المنطقة التي تلي البحر الأحمر وسهول تهامة والحجاز من الشرق؛ فبدا ذلك الوادي بما تكتنفه من الجبال أكثر ما يكون إشراقًا وبهاء.

كانت تلك المنطقة في ذلك اليوم على موعد مع التاريخ؛ ليسجِّل صفحات خالدات .. تتوارث البشرية أخبارها .. جيلاً بعد جيل .. فما ارتفع الضحى .. حتى أقبل إلى هذا المكان رجل وزوجه وابنهما على راحلتين، فألقيا برحالهم على مقربة من تلك الربوة الحمراء القائمة في ذلك الوادي.

إنه إبراهيم[١].. خليل الله.. تصحبه زوجه هاجر[٢].. تلك الأميرة المصرية.. ابنة النيل وسليلة الفراعنة، والتي وهبها ملك مصر لإبراهيم، فاتخذها زوجة له، لتنجب بكره إسماعيل، فسعدا به ما شاء الله لهما أن يسعدا .. لكن مشيئة الله، ولقدر كان قد قدَّره في

---

(١) هو إبراهيم بن آزر بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالح بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. كان مولده بأرض أور في بلاد الرافدين (العراق) هاجر إلى الشام ثم إلى مصر.. بعثه الله نبيًا لينشر دعوة التوحيد: عبادة الله الواحد.

(٢) هي هاجر المصرية ابنة النيل كانت أميرة فى منف، عدا الهكوس على قومها، وأسروها، وأخذها الملك إلى قصره، وأهداها إلى سيدنا إبراهيم لتكون جارية لامرأته سارة تزوجها سيدنا إبراهيم وأنجب منها بكره إسماعيل.

سجلات الخلود .. اقتضت أن يترك إبراهيم وهاجر ديارهما في أرض كنعان؛ ليمضيا وابنهما إسماعيل[1] إلى هذا الوادي .. حيث لا زرع ولا حياة .. اللهم إلا تلك الأعشاب الشوكية المتناثرة، وشجيرات السنط المتباعدة..

كانت تلك المنطقة – كالعهد بها – في هذا اليوم خالية من الناس .. حتى أولئك الرجال من العماليق الذين اعتادوا ارتيادها لعدة أيام من السنة .. يضربون فيها خيامهم كموئل للراحة؛ لما حولها من الآبار .. يلتمسون فيها كلأً ترعاه إبلهم .. حتى هؤلاء .. كانوا قد ابتعدوا.

لم يستطع التاريخ ان يحدد تاريخ هذه المنطقة[2] .. ذلك لأن سطور صفحاتها تضرب في سحيق الزمن، بحيث تبدو غير واضحة الملامح .. حتى لقد اختلف الرواة والمحدثون في أمرها .. فمنهم من قال: إن آدم أبا البشرية قد سكن هذه المنطقة ذات يوم، وبنى بيتًا بأمر من ربه، وطاف حوله، و منهم من ابتعد بتاريخ هذا المكان إلى أكثر من ذلك بألفي عام؛ فذكروا أن الملائكة هم الذين بنوا بيت الله في هذه المنطقة التي تتوسط العالم؛ لتكون مزارًا ومطافًا لهم في

(١)هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كان مولده في أرض كنعان / فلسطين، أمه هاجر المصرية وهو الجد الأكبر لسيدنا محمد رسول الله ﷺ الذى تولى نشر دعوة التوحيد في مكة وما حولها. ساعد إسماعيل أباه إبراهيم في بناء الكعبة.

(٢) أرخ الدكتور هيكل مقدم إبراهيم وهاجر إلى هذه المنطقة بعام ١٨٩٢ ق. م. (حياة محمد)، وقال آخرون: إن ذلك كان فيما بين عامي ١٩٨٠ – ١٩٧٠ق. م.

الأرض، وبين هؤلاء وهؤلاء فريق آخر حدثوا أن نبي الله إدريس عليه السلام هو الذي بنى، أو أعاد بناء بيت الله.

ما كاد القادمون يلقون رحالهم على مقربة من تلك الربوة الحمراء التي تعلوها بقايا البيت .. حتى راحت هاجر تتطلع إلى ما حولها، فما استطاعت أن تمسك دهشتها ومخاوفها؛ فما كانت ترى على مدى البصر إلا جبالاً أو حصباء تغطي ما حول الوادي، فأحست بالوحشة تهزها، والخوف يقلقها، وما كانت تدري أنها نزلت بأرض طيبة باركها الله، ولو كُشف عنها حجاب الزمن.. لعلمت من أمر هذا المكان ما يُسعدها، ولأدركت أن الله قد اختصها وابنها بما لم يختص به أحدًا غيرهما، وأنه سيكون لهما في الوجود أثر يسري ذكره على مدى السنين والأيام.

ولاحظ إبراهيم بشفافية إيمانه .. ما يدور في ذهن زوجه هاجر من أفكار ينطق بها وجهها، فقال:

- هوِّني عليك يا أم إسماعيل، فقد نزلت بأرض الله المباركة.

- ....؟!

- فاملئي قلبك ثقة في الله.

* * *

ومضى النهار، وأقبل الليل، وأرخى أستاره السوداء الحالكة،

فبدا المكان أكثر وحشة وظلمة.

وأقبل نهار اليوم التالي، فقام إبراهيم إلى راحلته، يهيئها للرحيل .. عائدًا إلى دياره في أرض كنعان، ثم اتجه إلى هاجر وقال لها:

- أستودعك وولدك الله يا هاجر، وآمل أن أعود إليكما متى شاء الله لي العودة.

قالت هاجر، والكلمات تتعثر على شفتيها، والدموع تتساقط من مُقلتيها، فما تملك أن تمسكها:

- أتتركنا وحدنا يا إبراهيم هنا، نقاسي الوحدة والغربة؟!

- الرب يحرسكما ويرعاكما.

- أبهذا أمرك ربك يا خليل الله؟!

- وما أملك إلا أن أفعل ما أمرني به ربي.

- وولدك .. وحيدك .. إسماعيل؟! قرة عين لي ولك الذي وهبه الله لك بعد عطش الأبوة التي طالت!!

- الرب سيرعاه ..سيحفظه .. سيكثّره .. يجعله أمة عظيمة، ويتبارك نسله...

قالت هاجر:

- إذن فالله لن يضيعنا.

وتعلقت نظرات إبراهيم بولده، فإذا إسماعيل – وكان ما يـزال رضيعًا – ينظر إليه، وهـو يبتعـد، وهـاجر تشـيِّعه بنظراتهـا الحانيـة، ويعلم الله ما في قلبها .. حتى ليُخيَّل إليها أن تتعلـق بأهـداب ثوبـه تمسكه عن الرحيل، ولكنها لا تملك - وهي تودعه – إلا أن تقول:

- فادع ربك يا إبراهيم، فأنت نبيُّـه وخليلـه .. ادعـه أن يمنحنـا الأمان والسلام.

ومضى إبراهيم في طريقه .. حتـى إذا كـان عنـد الثنيـة .. نظـر نظرة وداع إلى زوجه وولده، واتجه ببصره نحو السماء .. يدعو ربه:

- ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

* * *

(٢)

مضى النهار، وأقبل الليل، ثم كان نهارًا جديدًا.. استيقظت هاجر على صراخ ولدها إسماعيل، فراعها ما كان من أمره، وأحزنها بُكاؤه، وأحست بحنان الأمومة التي أودعها الله في قلبها .. ظمأ ولدها، فأسرعت إلى سقاء الماء .. تسبقها لهفتها، ولشد ما كانت حسرتها حين وجدته خاليًا.. حتى من قطرة واحدة، وراعها صراخ وحيدها، وهو يضرب الفراغ بقدميه، يعلن عن ظمئه!!

يا لها من لحظات قاسية عاشتها هاجر، وهي تتلفَّت حولها .. تبحث عن شربة ماء تطفئ بها ظمأ وحيدها، فما ترى إلا تلك الأرض التي تغطيها الحصباء، وتلك الصخور المترامية على مدى بصرها .. وما عُرف عن الصخور أو الحصباء أنها تبضُّ ماء!.

وتمضي هاجر ببصرها بعيدًا .. بعيدًا، فما ترى إلا بيداء مترامية .. انفتح مداها، وتباعد ما بين أطرافها .. تبدو وكأنها قد افترشت الكون من فرط اتساعها!.

كم تمنَّت هاجر في تلك اللحظات أن تأتي إلى مصر .. تغترف من ماء النيل العذب شربة ماء لوحيدها .. لكن الطريق بينها وبين مصر طويلة .. بعيدة .. شاقة!.

وبينما كانت هاجر تتطلع حولها على مدى البصر، فما ترى إلا رمالاً وحصباء أكثر ظمأ، وما تحس إلا الصَّمت يلف ما حولها ..

اتجهت إلى الصفا[1]، والقلق يهدُّها .. ترنو إلى الأفق .. علَّها ترى قافلة قادمة، وما تملك إلا الدعاء لربها .. تدعوه أنه يسقط قطرات من المطر .. أو يهديها إلى حيث تجد ماء تطفئ به ظمأ وليدها .. كم أدهشها ما ترى .. هناك عند المروة .. كأن لُجَّة من الماء، فأسرعت إليها رغم ضعفها وحزنها .. تهدأ حينًا، ثم تهرول حينًا آخر .. حتى إذا وصلت إلى المروة[2].. أحزنها أن ما رأته لم يكن إلا سرابًا.. يحسبه الظمآن ماء، فتضاعفت أحزانها .. كم يحيرها السؤال .. لماذا تركها زوجها هي ووحيدها في هذه البقعة الجرداء؟! تصارع موات الطبيعة حولها، وحرارة الشمس القاسية، فما تملك هاجر إلا أن تدعو الله، وهي تنظر حولها، فإذا لجة ماء تراها عند الصفا، فتسرع إليها .. لعل الله استجاب دعاءها .. حتى إذا بلغت هناك .. لم تجد ماء، وما كانت تراه إلا سرابًا!!

ومضت الساعات، وما تملك هاجر – وهي لا تستطيع أن تلتقط أنفاسها – إلا أن تدعو الله، وهي تسرع أو تهرول ما بين الصفا والمروة، وما بين المروة والصفا .. سبع مرات متتاليات،

---

(١) الصفا: جبل صغير يقع في الجهة الجنوبية مائلاً نحو الشرق. يبعد عن الكعبة بحوالي ١٣٠ مترًا .. يبدأ منه سعي الحجاج والمعتمرين. جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] من فوقه، أعلن رسول الله عن دعوة الإسلام جهرًا لقريش يوم فتح مكة تجمع عنده المسلمون.

(٢) المروة: جبل صغير من حجر المرو الأبيض . يقع في الجهة الشمالية الشرقية، على بعد حوالي ٣٠٠ متر من الكعبة، وهو نهاية السعي. انظر شكل (٢١) المسعي حاليًا.

وحرارة الشمس تلهب وجهها، والحصباء المتقدة تدمى قدميها!!.

ولو كُشف عن هاجر حجاب الزمن في ذلك اليوم، لعلمت أن مسعاها هذا بين الصفا والمروة سيكون منسكا من مناسك الحج والعمرة لمن أسلموا بدين حفيدها محمد بن عبد الله .. انظر شكل (٢١) المسعى في العصر الحديث.

لك الله يا هاجر .. لقد عشت سنوات صباك وشبابك في مصر .. أرض النيل .. حيث مياهه العذبة الصافية، وشمس ضُحاه، ونسمات أصائله، ثم عشت مع زوجك إبراهيم في رحاب أرض الشام .. حيث المروج والبساتين، وشذى الهواء، فلماذا كتب عليك أن تقاسي آلام الوحدة والغربة، وقسوة الطبيعة في مكان لا ماء فيه ولا زرع؟!

وما تملك هاجر، وهي تسمع صراخ وحيدها.. إلا أن تكفكف دموعها، ولسانها يلهج بالدعاء لربها.

عادت هاجر إلى ولدها .. عود أخضر في أرض جافة وهي تترنح من شدة التعب، ولسانها يكاد يلتصق بحلقها.. تتردد بين اليأس والأمل . عادت لتكون إلى جواره، تنتظر قضاء الله فيه .. حتى إذا وصلت إليه .. أدهشها ما بدا على وجهه من هدوء، فراحت تربِّت عليه .. تحتضنه .. تقبله، ثم نظرت على مقربة منه، فإذا مياه تنبع عند قدميه، فأسرعت تغترف منها .. تسقيه، وقد عادت ابتسامة الرضا إلى وجهها المضيء .. ولا تملك وهي في

سعادتها إلا أن تشكر ربها .. سعيدة بما أفاء الله عليها من خير .. سعادة أم كادت تفقد وحيدها .. لولا فضل الله عليها.

كان الماء ما يزال يتدفق، أو يندفع .. تتسع رقعته .. حتى لقد خشيت هاجر أن تبتلع مياهه الحصباءُ والرمالُ، فما تملك إلا أن تحيط حوله بما تستطيع من رمال، وهي تقول:

- زُمي، زُمي.

كم تمنت هاجر أن تحتفظ بهذه المياه، لتكون زُخرًا لها لعدة أيام، وما كانت تدري أن هذه المياه ستبقى متدفقة من هذه البئر على مدى آلاف السنين .. تروى ظمأ الحجيج الذين يفدون إلى بيت الله.

وإذا كان لهاجر أن تسعد بمياه زمزم، فقد كانت سعادتها أكبر حين أدركت بإيمانها أن الله لن يتخلى عنها .. لقد استجاب الله دعاءها ودعاء زوجها إبراهيم..

* * *

حتى كان ذات يوم .. حين كانت هاجر تجلس مع ولدها إسماعيل .. تفيض عليه من فيض أمومتها .. حبًا وحنانًا وعطفًا .. فإذا رجال مقبلون عليها .. قالوا فيما قالوه لها:

- إنهم من قبيلة جُرهم.

كان هؤلاء الرجال في طريقهم من اليمن إلى الشام، فلاحظوا

طيورًا في سماء تلك المنطقة، وما بهم عهد لمثل هذا في أرض جرداء، وهم الذين جابوا الصحراء عدة مرات ..؟! ولدهشتهم .. تتبعوا مسار الطيور في سمائها، فإذا تلك الواحة الصغيرة التي صنعتها مياه بئر زمزم، فسعدوا، لأنهم وجدوا فيها مكانا يهدأون إليه بعد طول السفر، ومشقة الطريق.

وحينما رأتهم هاجر .. أوْجست في نفسها خيفة .. لكن إيمانها بالله وبمشيئته .. دفعت عنها مخاوفها، وهي تسمع أحد الرجال يقول:

- هل تسمحين لنا يا سيدتي أن نهدأ هنا .. نستريح، فقد أجهدنا طول الطريق؟

فما تملك هاجر زوج خليل الله إبراهيم، والذي كان يعرف بأبي الضيفان .. إلا أن ترحب بالرجال، وتمنحهم من نعمة الله ما أفاء الله به عليها، فشربوا من ماء زمزم، وسقوا رواحلهم، وطعموا من خيرات الأرض .. ثم مضى بعضهم في طريقهم .. بينما بقى آخرون .. أنست إليهم هاجر، وأنسوا هم بها، وكان ذلك بداية عُمران لهذا المكان، بعدها أدركت هاجر أن ذلك فضل الله .. يؤتيه من يشاء.

* * *

(٣)

هكذا مضت الحياة بهاجر وإسماعيل، ومن وفد إليهما من قبيلة جُرهم الذين أخذوا يتكاثرون، حتى غدت المنطقة التي كانت بالأمس مجدبة .. عامرة بالحياة، وشب إسماعيل وسط جُرهم، فعرف لغتهم، وتعلم الصيد، ولعل هؤلاء قد استزرعوا جزءًا من المنطقة حول الربوة الحمراء .. ساعدهم على هذا مياه بئر زمزم.

وتتعاقب صفحات التاريخ، حتى نصل إلى تلك الصفحة من سجلاته .. حين قَدِم إبراهيم من بلاد الشام إلى مكة.. يدفعه الشوق والحنين إلى زوجه وولده، فسعد بما رأى، وما عرف، وحمد لله فضله، وشكره على نعمه.

وانتحى إبراهيم الخليل ناحية ما على مقربة من بئر زمزم.. يستظل بشجرة غرسها إسماعيل، وراح يتطلع إلى ما حوله، وذكريات كثيرة تتراءى له، وهو يستعيد تلك الأحداث التي تعاقبت عليه خلال عمره الذي جاوز التسعين عامًا.

وتذكر إبراهيم قافلة الحياة التي مر بها.. ما كان من أمره مع قومه الذين أوثقوه، وألقوا به فيَ النار، لأنه حطم أصنامهم، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، فكانت النار بردًا وسلامًا عليه، وتذكر إبراهيم فيما تذكره .. هجرته من (أور) بأرض الكلدانيين وطنه .. متجهًا وزوجه سارة إلى الغرب، وما حدث له في أرض كنعان، وما وقع له

في مصر .. حيث أهداه ملكها هاجر، لتصبح زوجة لها .. أنجبت لـه ابنه البكر إسماعيل، ليأتي بهما إلى هـذا المكـان .. ذكريـات كـثيرة تتابعت على ذهن الشيخ، وهو جالس في مكانه..

وشعر إبراهيم بالظمأ، فقام إلى بئر زمزم، فاغترف من مائها، ثم رفع كفيه إلى فمه، فارتوى، ثم عاد ليتابع ذكرياته.

فبينما هو كذلك .. لعب الغمض بجفنيه لحظة لا علم له بمداها، فسمع هاتفًا يهتف به:

- يا إبراهيم .. الله يأمرك أن تذبح ولدك .. قربانًا له.

وهبت نسمة رطبة .. أيقظـت إبـراهيم مـن غفوتـه، ومـا تـزال كلمات الهاتف تدق سمعه .. تأمره أن يذبح ولده!!

لم يكن صوت الهاتف غريبًا عنه .. إنه يعرفه جيـدًا.. إنـه نفـس الصوت الذي سمعه ذات يـوم .. وهـو موثـق داخـل الـنيران الـتي أشعلها الملك النمرود يقول: يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبـراهيم .. إنه نفس الصوت الذي بلغه تعاليم ربه، ليـدعو النـاس إلى عبـادة الله، ونبذ عبادة الأصنام .. إنه نفس الصوت الذي بشـره ذات يـوم قريب .. بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب.

يا لقسوة الأمر على إبراهيم .. كيـف تطاوعـه أُبوَّتـه أن يـذبح ولده .. بكره؟! .. كم يثقـل الأمـر علـى قلـب الشـيخ .. يحزنـه أن تكون نهاية ابنه بيديه!! ثم ماذا يكون أمره مع هاجر أم الفتى، حـين

تعلم بما وقع لوحيدها .. يا لها من أحزان تكاد تدمى قلب الشيخ، وما أصعبها من مشاعر تضطرب بها نفسه، ولكنه بعد هذا كله .. لا يملك إلا أن يفعل ما أمره به ربه، وليمنح الله له ولهاجر السكينة!!

نهض إبراهيم من مجلسه .. يتعثر في خُطاه .. تثقله أفكاره، فإذا إسماعيل مقبل نحوه .. فمال إليه يقبله .. يحتضنه .. كأنه يودعه.

كان على إبراهيم أن يُنبئ ولده بما اعتزم أن يفعل، تنفيذًا لأمر ربه، فما استطاع .. أعجز الحزن لسانه عن أن ينطق .. كل ما استطاعه .. أن يتفق معه على رحلة صيد كما قال البعض، أو لعلها رحلة احتطاب كما روى آخرون.

ورأى الصبحُ – حين أسفر – شيخًا يمضي في الطريق إلى جبل ثبير[1] .. يصحبه ولده .. حاملاً معه حبلاً ومُدية.. كانت خطوات الشيخ ثقيلة وئيدة .. أثقلتها الأفكار التي تضطرب بها نفسه، فبينما هما ماضيان .. قابلهما شيخ .. ائتزر بزيٍّ عربي، فانتحى بإبراهيم وقال له:

– أيها الشيخ الجليل .. كيف يطاوعك قلبك أن تذبح ولدك .. قرة عينيك؟! أما كفاك أنك أنزلته وأمه ذلك المكان الموحش، فجئت اليوم تذبحه؟!

وعرفه إبراهيم .. إنه إبليس .. أراد أن يصرفه عن أمر ربه ..

---

(١) جبل ثبير: يعرف باسم جبل عرفات.

هكذا اعتاد أن يُوسْوِس للناس - أليس هو الذي عصى ربه واستكبر عن السجود لآدم، وحقد عليه ما حباه الله من تكريم؟ فأخذ على نفسه عهدًا .. ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩،٤٠] ولأن إبراهيم من عباد الله المخلصين، فقد تناول حصاة ألقى بها على إبليس، وهو يقول:

- ابتعد عني يا عدو الله، فما أملك إلا أن أخضع لمشيئة ربي.

لكن إبليس يعاود محاولته .. يأتيه من الأمام، ومن الخلف، ثم عن يمينه أو شماله.. يحاول أن يصرفه عن أمر ربه، وفي كل مرة يلقي إبراهيم على إبليس حصاة.. سبع حصوات ألقاها إبراهيم على إبليس حتى اختفى.

ومضى إسماعيل وإبراهيم في طريقهما .. لكن إبليس يعاود محاولته مرة ثانية وثالثة .. فما يناله إلا سبع حصوات يختفي بعدها .. ثلاث مرات في ثلاثة أماكن مختلفة، وفي كل مرة كان إبليس يظهر بصورة مخالفة، لكن إبراهيم يعرفه.

كانت الطريق إلى جبل ثبير شاقة على الشيخ العجوز وولده .. حتى إذا وصلا إلى الجبل .. قال إبراهيم في صوت يفيض بعاطفة الأبوة الصادقة مُمْتزجًا بالإيمان بالله:

-﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾

[الصافات: ١٠٢].

هنا يقف التاريخ شامخًا أمام جلال الأبوة، وثقة البنوة، وقوة الإيمان، وصدق العزيمة، وإسماعيل يقول في ثبات لا يضعفه الخوف، وعزيمة يقويها الصدق:

- ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وتمضي لحظة صمت بين الرجل وولده .. لحظات مملوءة بشتى الانفعالات .. حسبها أن تكون لحظات قبل أن يذبح أب ابنه، وكأن إسماعيل يحس بما يدور في ذهن إبراهيم، حتى ليخشى أن ينصرف عن تنفيذ أمر ربه، فيقول في بُنوة صادقة:

- ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أوثق إبراهيم ابنه، وأمسك بالمدية، وأخذ يمضي بها على رقبته!! .. لم يكن إبراهيم وهو يفعل ذلك مُجرَّدًا من عاطفة الأبوة، ولم يكن إسماعيل وهو ممتثل لأبيه فاقد الإحساس، ولكنها السكينة تنشر أجنحتها على الشيخ وولده.

وضغط إبراهيم على رقبة ولده بالسكين.. لكنها لا تذبح ..وظن إسماعيل أن عاطفة الأبوة تمنع أباه من أن ينفذ أمر ربه، فقال:

- يا أبتي .. أخشى أن تدفعك أبوتك، وأنت تنظر إليَّ أن تنصرف عن أمر ربك، فكبني على وجهي، واشدد وثاقي؛ كي لا اضطرب.

وسكت الفتى قليلاً.. يقرأ سطور مشاعر أبيه على وجهه، ثم عاد يقول:

- **واشحذ شفرتك**، وأسرع بالسكين على حلقي.

- ....؟!

- **اكفف عني ثيابي**؛ حتى لا ينتضح عليها دمي، فتراه أمي؛ فتحزن.

وسكت إبراهيم .. **أسكتته** العبرات التي تتساقط على لحيته .. بينما عاد إسماعيل يقول:

- **فإن أتيت أمي، فأقرئها مني السلام**، ورد عليها قميصي .. عسى أن يكون لها سلوى.

ومضى إبراهيم بالسكين .. يضغط بها على رقبة ولده .. لكن السكين لا تذبح، كأن شيئًا يمنعها!.. نزعت منها خاصيتها، كما نزعت من النار حرارتها من قبل، فكانت على إبراهيم بردًا وسلامًا.. !! كم يُحيره الأمر ..! وإسماعيل صابر لمشيئة ربه .. ممتثل لطاعة أبيه .. وبين الحيرة والخوف.. سمع إبراهيم صوتًا يناديه .. ينبعث وسط الهدوء .. يقول له:

- ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

وتلفت إبراهيم حوله .. يبحث عن مصدر الصوت .. إنه نفس

الصوت الذي هتف به أن يذبح ولده .. بينما عاد الصوت يقول:

- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥].

وقبل أن يستجمع إبراهيم شتات فكره، ويلم حيرته .. عاوده الصوت يقول:

- ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧].

ورفع إبراهيم يديه إلى السماء في ضراعة؛ يشكر الله، فإذا بكبش يهبط عليه من الجبل .. إنه فداء ولده .. فذبحه، ثم قام إلى إسماعيل، وفك وثاقه، وقد غمرتهما السعادة .. سعادة طاعة الله، وسعادة الصبر والإيمان، وسعادة الفداء الذي كان دليلاً على رضا الله ومضيا في طريقهما .. عائدين إلى ديارهما في مكة[1].

* * *

(١) لم يرد في القرآن الكريم اسم الذبيح، مما دفع اليهود أن يدعوا أن الذبيح كان إسحق، وسجلوا ذلك في توراتهم في الإصحاح ٢٢ من سفر التكوين فقرة٢.. لكن الأحداث التاريخية تؤكد أنه إسماعيل؛ ذلك لأن هذا الحدث كان قبل مولد إسحق، وكان الرب ينادى إبراهيم «خذ ابنك وحيدك» فلم يكن لإبراهيم ابن آخر. كان وحيده وبكره هو إسماعيل عليه السلام (المؤلف).

(٤)

عاد إبراهيم إلى أرض حبرون في كنعان .. حيث زوجه سارة التي رزقها الله بإسحق بعد طول انتظار، ليكون آية على قدرة الله ومشيئته، وبقيت هاجر وإسماعيل في ذلك الوادي.. تمضي بهما الحياة، وكبر إسماعيل، واستوى عوده، وكان على عهده لأبيه .. يقرأ صحفه، ويشرحها لمن معه من رجال جُرهم .. بعد أن تعلم لغتهم، وتعلم الصيد، واستطاع أن يستأنس الخيل، وأصبح ذا شأن عظيم بين قومه.

***

أشرق صباح ذات يوم على الأرض المباركة، فبكَّر إسماعيل يستعد لرحلة صيد .. بينما قامت هاجر إلى ربها .. تصلي له وتدعوه بتلك الدعوات التي عرَّفها لها إبراهيم .. حتى إذا انتهت من صلاتها ودعائها .. استندت إلى عريشها .. متجهة ببصرها نحو بئر زمزم .. تستعيد تلك الصور التي عاشتها ذات يوم، ثم يمتد بها الطرف إلى تلك الربوة الحمراء القائمة على مقربة منها، فبينما هي كذلك .. لعب الغمض بجفنيها، فرأت كأن شجرة قد نبتت في وسط تلك الربوة، ثم تطاولت في السماء بفروعها وأغصانها، وقد اكتنزت بثمارها .. كانت شجرة باسقة .. أصلها ثابت، وفرعها في السماء .. اتسعت ظلالها؛ فكانت مرفأ لهؤلاء الذين جلسوا تحتها، يتنسمون

نسماتها الرقيقة، ويستنشقون عطر أزهارها.. كم تسعد هاجر بما تراه .. وتلك الطيور البيضاء التي كانت تحلق حول الشجرة .. أو تهبط عندها .. تلتقط الحب أو تحسو الماء .. إنها صورة تعيد إليها ما كانت تراه في وطنها مصر.

استيقظت هاجر من حلمها على صوت إسماعيل يناديها .. ينبئها بمقدم أبيه إبراهيم .. يا لفرحة هاجر بلقاء حبيبها وزوجها الذي غاب عنها طويلاً .. حتى تلك الزيارات التي اعتادها إبراهيم لها، لم تكن لتصرفها عن اللهفة للقائه والسعادة به .. فهو زوجها وأبو وحيدها، ثم هو قبل هذا وبعده .. نبي الله وخليله، فما أسعدها.

وكان إبراهيم يسعد بزيارة هاجر وإسماعيل، فقد كان يجد في هذا المكان عبقًا لا يجده في غيره من تلك الأماكن التي ارتادها، ما بين وطنه في أرض أور إلى أرض كنعان أو مصر .. من أجل هذا .. كان الحنين يدفعه إلى تلك البقعة المباركة .. كأن شيئًا ما يجذبه إليها .. وما يدري أن التاريخ في هذا اليوم قد فتح دفتي كتابه، ليسجل في إحدى صفحاته ذكرى خالدة.

ما كاد إسماعيل يرى أباه .. حتى ترك (نبلا) كان يصلحه للصيد، فأقبل كل منهما على الآخر، وذكريات كثيرة تتراءى لهما، وحدثت هاجر إبراهيم بحديث نفسها، وما رأته منذ لحظات .. كم كان إبراهيم سعيدًا بزوجه وولده، وبالرجال من قوم جرهم الذين

آمنوا بربه .. بل كان هو أكثر سعادة من أجل ذلك الأمر الذي قـدم من أجله.

قال إبراهيم لإسماعيل بعد أن استراح من عناء السفر:

- يا إسماعيل .. أمرني الله أن أبني له بيتًا[1].

فأسرع إسماعيل يقول:

- فأطع ربك فيما أمرك به.

فأشار إبراهيم إلى تلك الربوة الحمراء القائمة على غير بعيد من بئر زمزم، وهو يقول:

- هنا .. فوق تلك الربوة .. على أن تعينني.

قال إسماعيل، وقد غمرته السعادة:

- إذن، فافعل، وستجدني عونًا لك.

وبدأ إسماعيل وإبراهيم، فرفعا بقايا الأحجار التي كانت تعلو الربوة الحمراء .. فبدت لهما قواعد البيت الذي بناه آدم .. أو بنته الملائكة .. قواعد ثابتة راسخة، ثم أخذا يجمعان الحجارة .. يساعدهما من الرجال من اعتنق دين إبراهيم، ودرسوا صحفه وتعاليمه، وآمنوا بربه، كانوا يجمعون الأحجار من جهات متفرقة .. من جبل حراء وجبل

---

(١) فوق الكعبة في السماء: يوجد البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

قبيس وغيرهما من تلك الجبال التي تحيط بالمنطقة.

كان إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله، والبناء يرتفع يومًا بعد يوم .. حتى وصل اتساعه بين ثلاثين وواحد وثلاثين ذراعًا طولاً، وعرضه ما بين واحد واثنين وعشرين ذراعًا، وكانت هاجر سعيدة بما يفعله زوجها وولدها .. كأنما تجد في ذلك صورة لما رأته في غفوتها ذات يوم .. تلك الشجرة الباسقة الوارفة الظلال.. الوفيرة الثمرات، ولعلها هي الأخرى كانت تساعد زوجها وولدها .. تقدم لهما الطعام، أو تسقيهما من زمزم، وكانت أكثر ما تكون سعادة، وهي تسمع دعاء زوجها وولدها، وهما يرددان في فرح وضراعة.

- ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وسعد كل من كان يسمع دعاء إبراهيم:

- ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾

[البقرة: ١٢٦].

وارتفع البناء. فأتى إبراهيم بحجر(١) .. اعتلاه، ومضى في عمله

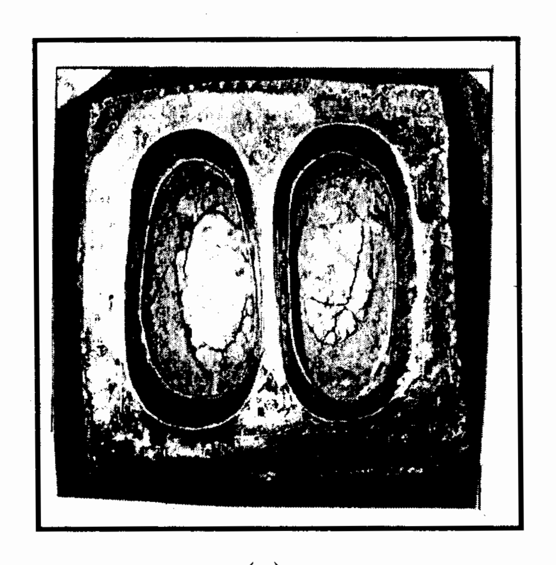
---

(١) يعرف هذا الحجر باسم مقام إبراهيم. دعا الله إلى الصلاة عنده في قوله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. اهتم به الخلفاء المسلمون على مدى التاريخ ووضعوه في صندوق فضي. ولأنه كان يعوق حركة الطواف، لذلك اتجه التفكير إلى نقله من مكانه فاقترح العالم الكبير الشيخ الشعراوي وضعه في صندوق زجاجي على قاعدة رخامية ١٣٠ سم × ١٨٠ سم انظر شكل (١، ٢) مقام إبراهيم والمقصورة في العصر الحاضر.

حتى بلغ ارتفاع البناء ما بين سبعة وتسعة أذرع، ولم يجعل إبراهيم له سقفًا .. بل جعل له بابين .. أحدهما من جهة زمزم، والآخر في الجهة المقابلة.

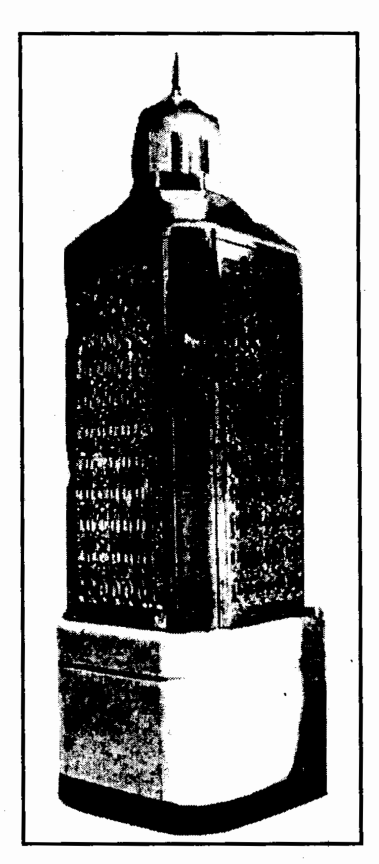
نظر إبراهيم إلى البناء، فوجد مكانًا خاليًا من حجر، فقال لابنه:

- اذهب يا إسماعيل، فابغ لنا حجرا .. أجعله علامة للناس.



شكل (١)

آثار قدمي سيدنا إبراهيم عليه السلام



شكل (٢)

مقصورة مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام الآن

وذهب إسماعيل يبحث عن حجر، وطال انتظار أبيه له .. حتى قلق عليه، وما كان يدري أن ذلك بمشيئة الله، فإذا بجبريل يهبط على

إبراهيم .. يعطيه الحجر الأسود[1] .. ذلك الذي كان محفوظًا في جبل قبيس حين غطى طوفان نوح الأرض، فوضع إبراهيم الحجر مكانه .. حتى إذا جاء إسماعيل ..أدهشه ما رأى، فقال:

- يا أبتي.. من أتاك بهذا الحجر[2]؟!

قال إبراهيم في أبوة وإيمان:

- أتاني به .. من لم يكلني إلى غيره.

وسعد إبراهيم وإسماعيل ببناء بيت الله، قد أوفيا بما عاهدا الله عليه، وارتفع صوتهما بالدعاء:

- ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

وسمع إبراهيم من يناديه، يقول له:

- ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

---

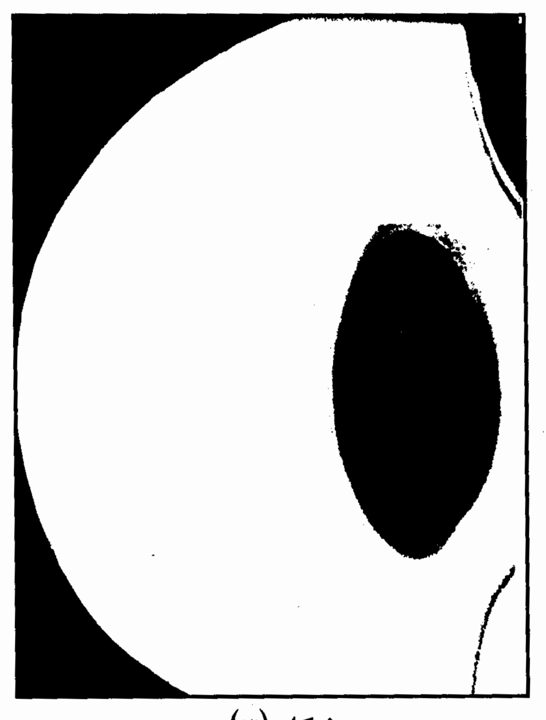
(١) الحجر الأسود: حجر من ياقوت الجنة، مثبت في الركن الجنوبي للكعبة على ارتفاع ١١٠ سم من أرض المطاف طوله ٢٥ سم وعرضه ١٧ سم، وهو مغروس في جدار الكعبة سرقه القرامطة سنة ٣٣٩هـ، كان قطعة واحدة.. ولكنه بفعل الزمن، تكسر. ثم ترميمه في العهد السعودي بإطار فضي في عهد الملك فهد سنة ١٤٢٢. أثبت الدراسات الجيولوجية أن الصخر الذي منه الحجر الأسود ليس له نظير في صخور الدنيا. عنده يبدأ وينتهي الطواف وعنده يستجاب الدعاء. في حديث لرسول الله أنه قال: **«والله ليبعثه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به، يشهد على من استلمه بحق»** رواه الترمذي.

(٢) انظر شكل ٣ من هذا الكتاب.

وعلت الدهشة وجه إبراهيم، وهو يستجمع شتات فكره، فكيف يؤذن للناس بالحج وهو في هذه الصحراء البعيدة، ومن يسمعه؟! فجاء الصوت يناديه:

- أذّن وعلينا البلاغ.

واعتلى إبراهيم الحجر، واتجه إلى اليمن جنوبًا، ونادى:



شكل (٣)

الحجر الأسود

- أيها الناس .. كُتب عليكم الحج إلى بيت الله .. يا عباد الله .. إن ربكم قد بنى لكم بيتًا، فحجوا إليه، وأجيبوا دعوة الداعي.

ولدهشته .. تجاوبت معه أصوات سمعها .. تقول:

- لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك ..إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك .. لبيك.

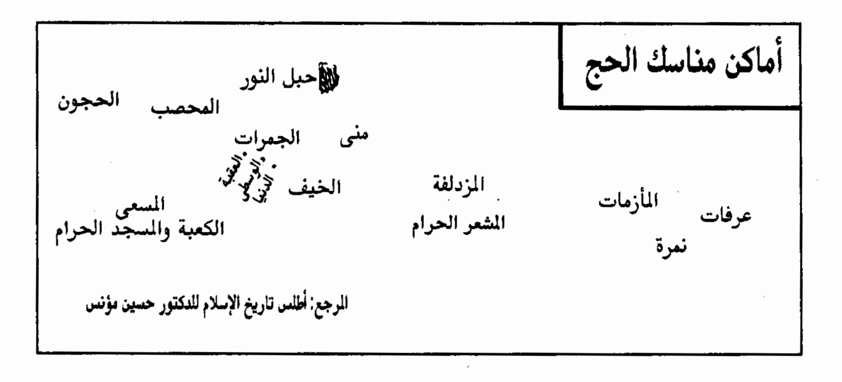
واتجه إبراهيم إلى المشرق، ونادى نداءه، ثم إلى المغرب، ثم إلى الشام، وفي كل مرة ينادي الناس بالحج.. تتجاوب مع ندائه أصوات الملبين:

- لبيك اللهم لبيك..

وتواصلت أصوات التلبية .. تعلو، وإبراهيم ينظر إلى البيت الذي بناه، فيحس بالنور يملأ كل ما حوله، والأصوات تعلو .. كأنها تراتيل السماء، حتى لقد بكى إبراهيم إيمانًا بالله. واعترافًا بقدرته، وأبكى معه إسماعيل وهاجر ومن شاء لهم أن يشهدوا هذا الموقف الملائكي.

ودعا إبراهيم ربه: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨، ١٢٩].

وسمع الله نداء خليله إبراهيم، فبعث إليه جبريل يرشده إلى مناسك الحج، فخرج ومن معه يوم التروية إلى منى، فصلى بهم، فلما أصبح الصبح.. اتجهوا إلى عرفات .. حتى إذا مالت الشمس بالمغيب .. اتجهوا إلى المزدلفة، فإذا أسفر الصبح .. أفاضوا إلى منى، فرموا إبليس بالجمرات، ثم تقربوا إلى الله بالفداء .. واتجهوا إلى بيت الله، فطافوا سبعًا، وسعوا بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ولعل هاجر وهي تسعى بين الصفا والمروة، قد تذكرت ذات يوم .. كانت تسعى بينهما .. تبحث عن ماء لولدها .. كم يسعدها أن يكون مسعاها منسكًا من مناسك الحج، فما أعظم تكريم الله لها. [انظر شكل (٤)].



شكل (٤)

أماكن مناسك الحج

(٥)

مسح الفجر بأصابعه الفضية على مكة وما حولها .. جبالها وهضابها .. سهولها وروابيها . واستيقظت هاجر من نومها؛ فقامت إلى مصلاها .. تناجي ربها .. تشكره .. تدعوه .. ثم جلست تتطلع إلى البيت الذي بناه زوجها وولدها بأمر من ربهما؛ فرأت حمامتين بيضاوين .. تطيران حول البيت؛ ثم تهبطان في صحن المسجد .. سعيدتين بأمنهما وحريتهما، وهما تلتقطان الحب، أو تحسوان الماء .. كأنهما كانتا اكتمالاً لتلك الصورة التي رأتها ذات يوم، وهي في غفوتها .. كأن هاتين الحمامتين قدمتا إلى بيت الله؛ تعلنان عن السلام والأمان في رحابه .. أليست الحمامة كانت ذات يوم بعيد رسول بشرى لمن كانوا في سفينة نوح[1] عليه السلام؟.

وأشرقت الشمس، فبسطت رداء فضيًا على بيت الله؛ فبدا أكثر ما يكون بهاء ونورًا، وسعدت هاجر، وهي تنظر حولها: فإذا الدور والخيام قد تناثرت على سفوح مكة، وفتيات بني جُرهم، وقد أقبلن على بئر زمزم .. يملأن أوعيتهن بمائها..

كن فتيات في عمر الربيع .. تمشين في خطوات فساح . تكبر

(١) هو نوح بن لامك بن متوشالح من أخنوخ (إدريس) ينتهي نسبة إلى آدم عليه السلام، في عهده كان الطوفان الذي عاقب الله به من كفروا بنوح واستقرت سفينة نوح بسلام . وكانت الحمامة علامة على استقرار السفينة وجفاف الأرض من مياه الطوفان.

على شفاههن ابتسامات الرضا، وهن يدلين بأوعيتهن في البئر، ثم يرفعنها، وقد امتلأت بالماء العذب، فيمضين إلى دورهن في شعاب مكة أو على سفوحها، و هُن يتغنين بأعذب الكلمات .. كلمات صافية .. تعلن عن مدى سعادتهن.

تذكرت هاجر زوجها إبراهيم، وكان قد غادر مكة مُتجهًا إلى أرض حبرون. حيث زوجه سارة، وابنه إسحق وولديه عيسو ويعقوب، وخلف في مكة ابنه إسماعيل.. يتولى أمور البيت، ويعلّم الناس صحف إبراهيم، وليقوم على خدمة الحجيج الذين يتوافدون على البيت، تلبية لنداء الله على لسان رسوله إبراهيم الخليل.

وكانت هاجر أكثر ما تكون سعادة، وهي تتطلع إلى ما يدور في الكعبة من الساعين والطوافين والركع السجود، وهم يرتلون الدعوات والتلبيات التي لا تنقطع عن البيت .. ثم وهي تجلس مع أحفادها أبناء إسماعيل .. نابت وقيدار ودومة وبطور و... تتدارس معهم تعاليم الدين، وتحكي لهم عن أمجاد مصر .. نيلها وأهراماتها وحضاراتها.

حتى كان ذات يوم .. حين جلست هاجر .. مُستندة إلى عريشها ..متجهة إلى الكعبة وصور كثيرة تتوارد على ذهنها .. تذكّرها بفضل الله عليها .. وما تزال ابتسامة الرضا ترف على شفتيها، وبدا وجهها أكثر إشراقًا.. لولا تلك الصفرة التي تعلوه .. حتى إذا انتهت ما كان لها من نسمات، وتقطع ما بينها وبين الحياة .. أسبلت جفنيها، فمال

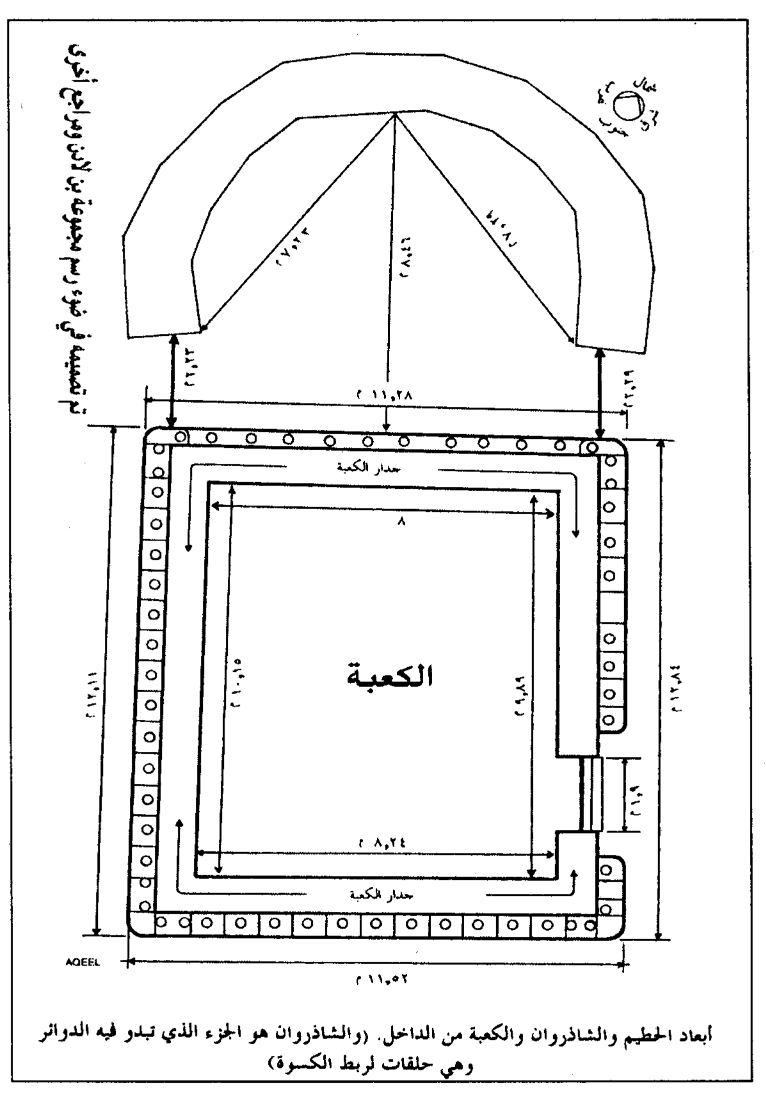
إسماعيل إليها، والدموع تملأ مقلتيه، فما يستطيع أن يمسكها، ثم أسلمت روحها لله، فبكاها كل من في مكة .. بكوا فيها أمًّا طاهرة .. لأمة سيبقى ذكرها في عبق التاريخ ما شاء الله، ودفنها إسماعيل في حجر إسماعيل[1].

شعر كل من في مكة .. أن نجمًا قد أفل .. مضى بنوره، وخلف وراءه ذكريات عطرة، ولكنها سنة الحياة التي شاءها الله لبني البشر!!

وحزن إبراهيم الخليل على زوجه هاجر، فقدم من الشام إلى مكة.. يقدم واجب العزاء لبنيه .. وليستروح ريح زوجه، ويستعيد في بيت الله ذكريات محببة إلى قلبه .. أليست هاجر هي أول من أنجبت له بكر أولاده .. إسماعيل؟، أليست هي التي رضيت بمشيئة الله حين أودعها وولدها بواد غير ذي زرع، فتحملت قسوة الحياة.. صابرة شاكرة؟ أليست هي التي لم تستمع لوسوسة الشيطان حين أنبأها بأن زوجها يريد ذبح ولدها.. ثم كانت له عونًا في بناء الكعبة؟ .. وما يملك إبراهيم وهو يستعيد الذكريات .. إلا أن يدعو بالرحمة لهاجر وهو عند الكعبة، ولتكن ذكراها عزاء له وسلوى.

---

(١) حجر إسماعيل: يعرف الآن باسم الحطيم، وهو بناء مكشوف على شكل نصف دائرة يقع شرق الكعبة. ارتفاع جداره ١٣٢ سم. أبعد نقطة منه من الكعبة ٥,٤٦ متر. كان جزءًا من الكعبة أنقصته قريش عندما أعادوا بناء الكعبة قبل البعثة بخمس سنوات. الصلاة فيه كالصلاة في الكعبة. وهو من الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء. انظر الشكل (٥).



أبعاد الحطيم والشاذروان والكعبة من الداخل. (والشاذروان هو الجزء الذي تبدو فيه الدوائر وهي حلقات لربط الكسوة)

شكل (٥)

رسم يوضح العلاقة بين الكعبة وحجر إسماعيل (الحطيم)

(٦)

لم تنقطع الصلة بين إسماعيل وبنيه في مكة، وأخيه إسحق وولديه عيسو ويعقوب في الشام، فقد كانت وشيجة القربى تدفعهم إلى تبادل الزيارات، كما ارتبط عيسو بن إسحق برباط المصاهرة، حين تزوج محلة ابنة إسماعيل، وكان إبراهيم يأتي إلى مكة من حين لآخر .. يطوف بالبيت، وكان إسماعيل يذهب إلى الشام لزيارة أبيه وأخيه وبنيه.

حتى كان ذات يوم .. ذهب إسماعيل إلى حبرون لزيارة والده إبراهيم الذي ألم به المرض، وهناك حضر إسماعيل وفاة أبيه حين وفَّي ما له من نسمات الحياة .. بعد أن أدى ما أمر به الله ، ونشر تعاليم دينه .. دين التوحيد والعدل والسلام، ودفنه ولده إسحق في أرض حبرون في مزرعة مكفيلة بجوار زوجه سارة .. ولكن بقيت ذكراه العطرة في مصر والشام والحجاز تملأ سجلات الخلود.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وعرف كل من في مكة[1] بوفاة إبراهيم، فبكوا ما عرفوه عنه،

---

(١) مكة: تقع في وادٍ تحيط به الجبال بين خطى طول ٣٩، ٤٠ شرقًا، ودائرتي العرض و ٢١، ٢٢ شمالاً، وترتفع عن سطح البحر ٢٧٧ مترًا. هاجر إليها سيدنا إبراهيم وزوجه هاجر وابنهما إسماعيل. فيها المسجد الحرام وهي قبلة المسلمين في صلواتهم. فيها كان مولد رسول الله نبي الإسلام، وفيها نزل عليه الوحي في=

وأدركوا ان نجمًا آخر من نجوم تاريخ مكة .. قد ابتعد بنوره .. حيث لحق بزوجه هاجر.

تولى إسماعيل مسئولية الكعبة ورعاية الحجيج، وتحمل مسئولية نشر دعوة أبيه إبراهيم في الحجاز واليمن وما جاورهما .. حيث كان يرتحل إليها من حين لآخر، ودعا أبناءه إلى نشر تعاليم جدهم ومبادئ الدعوة الحنيفية، ونشر إسماعيل وبنوه فيما نشروه اللغة العربية والمعلومات التي عرفوها عن جدهم إبراهيم، وما علموه من جدتهم الحبيبة هاجر عن الحضارة المصرية في وادي النيل.

وارتفع شأن مكة وبيت الله الحرام .. وكسا إسماعيل الكعبة أول أثوابها، وكثرت الخيام حول مكة وفي شعابها وعلى سفوح جبالها، وتزايدت قطعان الأغنام .. ترعى من كلأ البادية، ووفدت الكثير من القبائل إلى بئر زمزم، يلتمسون فيها ماء مباركًا يروى ظمأهم، ويشفي أمراضهم.

وازدهرت الحياة في مكة، واستطاع إسماعيل وبنوه استئناس الخيول واستخدامها في السفر والترحال والصيد .. حتى غدت لهذه الخيول شهرة كبيرة.

كانت السعادة تغمر كل جنبات مكة .. ويرفرف الأمان في

=غار حراء، فتحها الرسول سنة ٨ هـ الفتح الأكبر. وإليها يحج المسلمون لأداء فريضة الحج، أو العمرة، وفيها أماكن يستجاب فيها الدعاء. تسمى بعدة أسماء: مكة، بكة، أم القرى، البلد الأمين، واد غير زرع، الحرم الآمن.

سمائها، والخير يأتيها، ويكثر في موسم الحجيج، والبيت .. بيت الله يغمره فيض نوراني رباني.. ترتفع فيه الصلوات والتلبيات وتراتيل الدعاء، والحمد والشكر لله، فإذا انتهى موكب الحجيج .. عاد الناس إلى قبائلهم يذكرون البيت وأهله بالخير، ويبشرون بتعاليم إبراهيم .. محبة وسلامًا ووحدانية لله...

حتى كان ذات يوم..

كانت مكة تزخر بالحجيج .. بينما أقام إسماعيل في خيمته على مقربة من الكعبة لم يستطع أن يبرحها .. أقعدته شيخوخته عن الطواف .. بعد أن ضوى جسمه، ووهن عظمه، وغمر المشيب جسده، فبقي في خيمته .. ينطق لسانه بما يهتف به الهاتفون وهم يطوفون بالبيت.. كانت تلبيتهم تسعده .. تذكّره بذكريات عزيزة عليه، والتف حوله أبناؤه، وقد أحزنهم أمره .. ولكنه دفعهم إلى أن يمضوا مع الحجيج في أداء مناسكهم، فتولى ابنه نابت قيادة الحجيج .. حتى إذا انتهوا عادوا إلى أبيهم، فسعد برؤيتهم وأسعده انتشار دين الله .. لكن يد القدر امتدت إلى إسماعيل، وما تزال البسمة ترف على شفتيه، وانتهت حياته، ليلحق بأمه هاجر .. حيث دفنه أبناؤه بجوارها.

وهكذا فقدت مكة ثالث ثلاثة أنجمها .. هاجر وإبراهيم، ثم إسماعيل!!

(٧)

عقد التاريخ عهده .. أن يسجل سطور صفحاته، كما نسجتها الأحداث، وما هذه الأحداث إلا تفاعل بين الأقدار والبشر .. كثيرًا ما لا يستطيع الإنسان أن يقف في وجه الأقدار، و ما يملك دفعها، فيرضى بما شاءته له .. لا عن عجز أو تقصير ولكن لحكمة يعلمها الله، وما يملك التاريخ أن يتوقف عن التسجيل في سجلاته .. طالما بقى في قلمه مداد .. ونحن بنى البشر – حين نستعيد صفحات التاريخ – لا نملك إلا أن نقرأها، ثم نعيد كتابتها لا كما نشاء، ولكن كما وقع لشخوصها!!.

كان للمركز الذي حظيت به الكعبة أثر في تاريخها، فقد أغرى كثيرًا ممن كانوا يسكنون في رحابها بمحاولة انتزاع الريادة من بني إسماعيل، وكان من هؤلاء: قبيلة جرهم الذين كانوا يسكنون على مشارف مكة من جهة الشمال في منطقة قعيقعان .. يدفعهم إلى هذا كثرتهم وحبهم للسيطرة، ولأنهم كانوا أول من سكن مكة حين قدمت إليها هاجر، ومنهم تزوج إسماعيل زوجه عاتكة بنت عمرو الجرهمي، وكان زعيمهم مضاض بن عمرو رجلاً قوي الشكيمة .. عرك الحياة، وتعددت رحلاته إلى الشام ومصر والعراق، وعرف كثيرًا من أمور هذه الدول، فكان يتطلع إلى بناء دولة قوية يكون مركزها مكة ..

وفي الجنوب .. كانت قبيلة قطوراء من العماليق، وهم الذين كانوا يرتادون وادي مكة عدة أيام في السنة .. يلتمسون فيها كلأ لإبلهم وشياههم، فهم يعتقدون أنهم أحق بالزعامة. وكان زعيمهم السميدع بن عمليق رجلاً شديد البأس والمراس..

ثم هناك .. غير هؤلاء وهؤلاء .. رجال خزاعة الذين كانوا يسكنون تهامة في انتظار أن تهيَّأ لهم الظروف للانقضاض على مقاليد الأمور في مكة.

لم يستطع قيدار بن إسماعيل الذي خلف أخاه نابت أن يمسك بزمام أمور الكعبة، فقد كان شيخًا طاعنًا في السن .. ضعيفًا ، فترك ولاية بيت الله لبني خؤولته .. للجراهمة .. الذين انتهزوا هذه الفرصة، ففرضوا الضرائب على التجارة القادمة من شمال مكة، ضرائب تساوي عشر قيمتها.

حقد العماليق على الجراهمة ما أصابوه من أموال، وما حازوه من عزة بولايتهم على الكعبة، فقام العداء بين الطرفين: الجراهمة والعماليق؛ مما أدى إلى النزاع والتنافس والمخاصمة، ودفع بزعيم العماليق إلى فرض ضرائب مماثلة على التجارة المتجهة من الجنوب إلى مكة.

.. حتى كان ذات يوم .. تنابذ فيه الجراهمة والعماليق وتفاخروا في الكعبة، وراح كل منهم يثبت نسبه إلى نوح .. بينما

زعم العماليق أنهم ينتسبون إلى الملائكة .. حتى قامت الحرب بينهم في الكعبة، واستطاع مضاض الجرهمي أن يقتل السميدع، ويسقطه من على جواده، فأصبحت الكعبة مسرحًا للقتال، وكان لهذا الصراع والدماء التي أريقت في ساحة المسجد الحرام أثر على الناس، فقل عدد الحجيج.. بعد أن أصبحوا في غير مأمن على أموالهم ودمائهم .. لولا ما كان يتعلق به الناس من آمال في أن يشرق نور البيت وربه في قلوب المتنازعين .. حتى يعودوا إلى الصواب.

وشاء الله أن ينزل على الناس بعضًا من سخطه، فأرسل عليهم سيلاً أصابهم في خيرهم وخيامهم وتجارتهم، وأدي هذا السيل إلى تصدع في جدران الكعبة .. لعلهم يتعظون. ولعل نور الفجر ينبثق ليزيل أستار الظلام والضباب.

حزن أبناء إسماعيل على ما أصاب الناس والكعبة، ولعلهم أحسوا بالندم حين تخلوا عن الريادة لبني جرهم، وما كان لهم أن ينضموا إلى أحد المعسكرين .. حتى لا تراق المزيد من الدماء، فاجتمعوا يتشاورون في الأمر .. قال قائلون منهم:

- هذا البيت .. بناه إبراهيم وإسماعيل.

- وهذه بئر زمزم .. أنبعها الله لهاجر .. رحمة بإسماعيل.

- وهذه مكة .. كانت بالأمس مقفرة خالية، فغدت اليوم بفضل زمزم وبيت الله .. واحة تموج بالناس، وتعج بالحجيج الذين جاءوا

إليها تلبية لدعوة الله على لسان نبيه وخليله إبراهيم.

- أفنترك كل هذا لغير بني إسماعيل؟

وقال آخرون:

- إنه بيت الله الحرام .. ما نبغى أن تسفك فيه الدماء..

- لقد جعله الله حرمًا آمنًا.

وقال فريق غير هؤلاء وهؤلاء:

- وإذا كنا نحن بنى إسماعيل أصحاب حق في رعاية البيت وحجيجه، فإن لنا في بني جرهم صلة قرابة وخؤولة .. أليست عاتكة زوجة إسماعيل .. واحدة من بنات جرهم؟.

- وإذا كان إسماعيل قد ارتبط مع جرهم برباط مصاهرة.. فما نريد أن نحل وكاءه .. أو ينفرط العقد الذي نظمه الأجداد.

من أجل هذا .. ارتضى بنو إسماعيل أن يتخلوا عن الزعامة للحارث بن مضاض .. لم يدفعهم إلى ذلك ضعف أو تخاذل، وإنما دفعتهم رغبتهم في حقن الدماء في بيت الله، واحترامًا لرابطة المصاهرة والقرابة، وقام بنو إسماعيل بإصلاح ذات البين بين الجراهمة والعماليق الذين انسحبوا من المعركة بعد قتل زعيمهم السميدع.

لم يُحسن الجراهمة سياستهم، ولم يذكر لهم التاريخ خلال

حكمهم من حسنة .. إلا أنهم أعادوا ترميم جدران الكعبة بعد أن أصابها السيل، وزادوا من ارتفاعها.

عاث الجراهمة في مكة فسادًا، ففرضوا الضرائب الباهظة، وأرهقوا القوافل بالإتاوات، واستولوا على أموال الكعبة، وسرقوا ما فيها من هدايا وكنوز، وطففوا الكيل والميزان، وكانوا يأتون الفاحشة والموبقات ما ظهر منها وما بطن، وسمحوا بإقامة الأصنام في الكعبة، واتخذوا منها وسطاء .. تقربهم إلى الله زلفى .. وابتعدوا بالناس عن الدين الحنيف .. دين إبراهيم وإسماعيل، ونشروا الفزع والفساد في مكة وما حولها طوال ثلاثمائة سنة .. كانت من أسوأ الفترات في تاريخ مكة، ولم يتعظوا بما حدث لغيرهم من الأمم السابقة مثل عاد وثمود، وضعفت وتفككت أواصر المودة بينهم وبين جيرانهم من القبائل الأخرى، وغمَّ على الناس، فما عادوا يدخلون الكعبة للطواف .. إلا وغشيتهم سحب الخوف التي أصبحت تظّللهم في غدواتهم وروحاتهم؛ حتى القوافل التي كانت تعبر مكة .. اتجهت إلى طرق أخرى .. يلتمس أصحابها الأمان والسلامة بعيدًا عن رجال جرهم، وارتفعت صرخات الناس تجأر إلى ربهم .. تطلب النجاة، وشاء الله أن ينتقم ممن أساءوا إلى دينه، وأفزعوا أهل بيته، فأنزل بالجراهمة عقابه .. أصابهم بداء الرعاف .. تتساقط الدماء من أنوفهم، فما عادوا يجدون في لقمة الطعام إلا غصة في حلوقهم، وما أحسوا في شربة الماء إلا الأسونة والكدارة،

وسلط الله عليهم النمل تتعثر فيه أقدامهم.. يغطى أجسادهم .. يعلو وجوههم .. يدخل أنوفهم وأفواههم، وما يستطيعون أن يغلقوا عيونهم!! وحاول الجراهمة القضاء على جيوش النمل، وهي تزحف عليهم من كل صوب .. فما استطاعوا .. ففروا هاربين بعيدًا يطلبون النجاة، ولكن جيوش النمل تعقبتهم .. حتى وصلوا إلى منطقة يقال لها (إضم)، وما كادوا يهدأون بها حتى جن الليل، وأطبق عليهم سيل غزير، فما استطاعوا منه الهرب، فهلكوا جزاء ظلمهم.

وحينما أحس الجراهمة بنهايتهم.. عمد الحارث الثالث.. آخر زعيم لهم .. إلى الكعبة، وأخذ ما في جوفها.. غزالتين من ذهب، وسيوف ودروع، ثم مضى بها بعيدًا، حتى إذا أحس بمن يرقبه ويتبعه .. انتحى نحو بئر زمزم، فألقى فيها بكل ما سرقه، وأهال عليها الرمال، ثم عاد إلى قومه .. حيث غادروا مكة..

وبذلك تطهرت مكة من أعداء دين الله، وعادت ولايتها وأمور الكعبة إلى بني إسماعيل حيث تولى أمورها نزار بن معد بن عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل، فعاد إلى مكة ازدهارها، وزاد عدد الحجيج، وتوافدت قوافل التجارة عبر مكة، وكان بنو إسماعيل على دين جدهم إبراهيم، فراحوا ينشرونه، ويعلّمون الناس صحف إبراهيم.

ومضت الأحوال في مكة .. على خير ما يرتجيه أهلها .. حتى إذا حضرت الوفاة (نزار) أوصى بالولاية لابنه أياد، وما هي إلا فترة يسيرة .. حتى دب النزاع بين أياد وأخيه مضر وتصارعا على الزعامة، وكادت الحرب تشتعل بينهما، وانتصر مضر، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

***

(٨)

أرخى الليل أستاره الحالكة على مكة، فلفها بغلالة سوداء، وغاب القمر في تلك الليلة، واختفت نجومها .. لكن (أياد) وبعض رجاله .. اتخذوا طريقهم إلى الكعبة، ليطوفوا بالبيت، وليتوجهوا بعد ذلك إلى العراق.. بعد أن ضاقت مكة به وبأخيه مضر.

فبينما كان أياد ورجاله يطوفون.. يدعون ويبتهلون .. عتمت في نفسه فكرة حدثه بها الشيطان، فاتجه إلى الحجر الأسود، وبدلاً من أن يستلمه أو يقبِّله .. خلعه من مكانه، وابتعد به، وأخفاه في مكان مجهول..

لم يدر أياد وهو يخفى الحجر الأسود .. أن عينا ترقبه وسط الظلام .. إنها عين امرأة من خزاعة، كانت قد وفدت فيمن وفد من قبيلتها للطواف، فتتبعت (أياد) وهو يخفى الحجر الأسود ثم أنبأت رجال قبيلتها بما رأت.

كانت قبيلة خزاعة تتحين الفرصة لامتلاك زمام أمور الكعبة، فوجدت في ذلك فرصة لتحقيق أملهم في السيطرة على مقاليد الأمور في مكة والكعبة.

فلما أصبح الصباح، وتفقد الناس الحجر الأسود في مكانه، ولم يجدوه، وشعر مضر بالحزن، وقد علم بهروب أخيه أياد .. عند ذلك

أقبل عليه زعيم خزاعة، وقال له:

- يا سيد بني إسماعيل .. ماذا لو أنبأتك عن مكان الحجر الأسود؟

وقبل أن يتكلم مضر .. أسرع خزاعة يقول:

- على أن ينزل بنو إسماعيل لخزاعة عن ولاية البيت.

وما يملك مضر، وهو في موقفه إلا أن يوافق الخزاعي على رأيه.

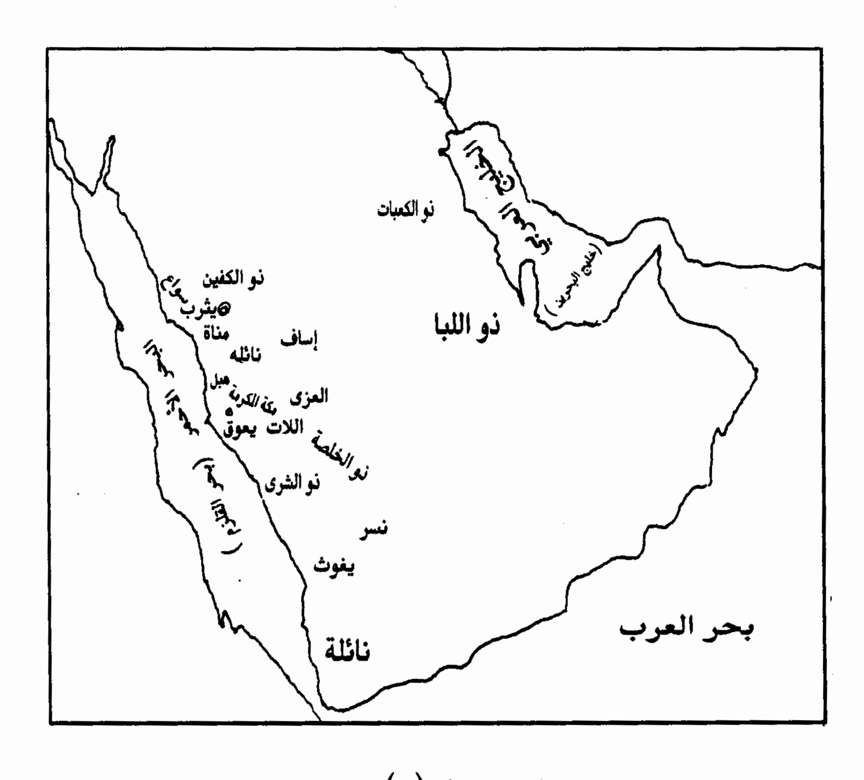
أعاد مضر الحجر الأسود إلى مكانه بين سعادة العثور عليه، والأسف على ما اقترفه أخوه، مما دفعه إلى التخلي عن رعاية البيت!!

أحكم الخزاعيون قبضتهم على أمور مكة والكعبة، فبدأ عهد جديد .. هو امتداد لعهد الجراهمة[1]، ولعل من أبرز سيئات خزاعة .. ما أحدثه عمرو بن لحي في الكعبة.. حين جاء بصنم يقال له هبل، ووضعه في الكعبة، يطوف حوله، ويتقرب إليه، فكان بداية العهد بعبادة الأصنام.

كان عمرو بن لحي الخزاعي .. رجل ترحال وتجارة، وكان من عادة المسافرين للتجارة .. أن يطوفوا بالكعبة قبل الرحيل، وأن يأخذوا معهم بعضًا من حجارة الكعبة، تذكّرهم ببيت الله.. يطوفون

(١) ارتبطت قبيلتا خزاعة وجرهم بمصاهرة .. حيث تزوج أمير خزاعة من أميرة جرهم، فكان عمرو هو ثمرة هذا الزواج.

حولها وهم في سفرهم، وسافر عمرو ذات مرة متجهًا إلى الشام، وهناك في مدينة البلقاء وجدهم يعكفون على أصنام لهم .. يعبدونها .. كل إله يُمثل بصورة ما مثل عشتار، بعل، هدد وغيرها، واقتنع عمرو بما رآه، وما كان يدري أنه شرك بالله وبدين إبراهيم .. من أجل هذا عاد إلى مكة يحمل صنمًا لهبل، ووضعه في الكعبة، وجعل يطوف حوله .. كان هذا بداية لانتشار الأصنام وعبادتها في شبه الجزيرة العربية (انظر شكل (٦) أهم الأصنام)، وكان ذلك أثناء فترة حكم الجراهمة، فعارضه الناس .. ولكنه مضى – وهم له كارهون – يدعو الناس إلى الاقتداء به في عبادة هبل .. حتى إذا قُدر له أن يسيطر على حكم مكة .. دفع بالناس إلى عبادة الأصنام .. فاختط بذلك طريقًا هو أبعد ما يكون عن الحق.



شكل (٦)

أهم الأصنام في شبة الجزيرة العربية قبل الإسلام

كان اليمنيون يتابعون ما يجري في مكة، ويتمنون لو قدر لهم أن يسيطروا على بيت الله، فقد عرفوا من أمره أنه سبب عزة العرب ومنعتهم وسعادتهم ومجدهم، وأنه قبلة لكثير من القبائل التي تأتي إليه للطواف حوله، والتقرب لآلهته.. وكان اليمنيون في ذلك الوقت يدينون في غالبيتهم بالديانة اليهودية التي عرفت طريقها إليهم منذ عهد الملكة بلقيس ملكة سبأ، وما كان من أمرها مع سليمان ملك ونبي اليهودية في ذلك الوقت[1]. وعرف أحبار اليهود من دراستهم للتوراة أن رسولاً من أرض مكة سيبعث بدين جديد، ينتشر دينه في الآفاق، فتمنوا أن تكون لهم السيطرة والغلبة على مكة، وداعبتهم الآمال في أن يهدموا الكعبة، ويستولوا على أحجارها؛ لينقلوها إلى اليمن حيث يقيمون بيتًا .. يدفعون الناس لزيارته والطواف حوله..

من أجل ذلك توافدت حملات تتابعة اليمن إلى مكة..

.. وكانت أولى هذه الحملات .. حينما قدم تُبَّع الأول في جيش إلى مكة .. يريد هدمها، ولكنه هُزم شر هزيمة، ولم يكن ذلك ليثني اليمنيين عما اعتزموه .. فما كاد تُبَّع الثاني يتولى الحكم حتى كون جيشًا كبيرًا، واتجه به نحو الكعبة؛ يبتغي نصرًا عجز عنه أسلافه..

---

(١) وردت قصة بلقيس وسليمان في القرآن الكريم في سورة النمل – الآيات (١٦-٤٤).

نزل تبع الثاني ورجاله اليمنيون في منطقة (نخل) على غير بعيد من مكة، وراح يتطلع إلى البيت العتيق .. وأفكار كثيرة تتزاحم في رأسه .. بعضها يهيئ له النصر، وكثير منها تعيد إليه صفحة هزيمة من سبقوه، فيلتوي به الفكر، وتنطفئ في قلبه جذوة الحماس كلما نظر إلى الكعبة، فيحس برهبة تهز جسده، وكأن سهامًا تنفذ إلى صدره.

ورأى تبع ذات ليلة حلمًا: كأن خيمته التي أقامها له رجاله، قد أطبقت عليه .. حتى لتكاد تلصقه بالأرض، و إذا ريح عاصفة، لا يملك لها ردًّا تقتلعها، ليبقى وحده في العراء .. تلهبه حرارة الشمس، وتلسعه ذرات الرمال الساخنة، فلما استيقظ من نومه، واستعاد صورة حلمه.. أوجس في نفسه خيفة، وغُمَّ عليه، فما استطاع أن يستبين تفسيرًا له .. حتى ليكاد يفكر في العودة إلى بلاده.

وما يجد تبع ما ينفّس به عما يدور في صدره، إلا أن يأمر رجاله، فيسدوا الطريق إلى مكة، ليصرف الناس عنها، ويدفع بجنوده إلى شعابها ليغيروا على من فيها .. يأسرون رجالها، ويسبون حرائر نسائها، ويسلبون ما تصل إليهم أيديهم من إبل وشياه.

وعرف الخزاعيون ما كان من أمر تبع ورجاله، فأدركهم الخوف مما ينتظرهم، وأفزعهم ما قد يصيبهم من عدوهم، وكان بنو إسماعيل ما يزالون على العهد والولاء لبيت الله الذي بناه جدهم

.. مستعدين للتضحية من أجل الحفاظ عليه.. فانتهز الخزاعيون هذه الروح .. فدفعوا بهم إلى مقدمة المعركة.

وتجمع رجال قريش وكنانة وأسد ومضر، وانضم إليهم بنو لؤى وتيم وقيس، وقد امتشق الجميع سيوفهم، وتشاوروا الأمر والرأي، حتى انتهوا إلى قرار بمهاجمة العدو خارج مكة .. حفاظًا على حرمة البيت من أن تدنسه الدماء، أو تتناثر فيه الأشلاء.

وبينما ابتعد الخزاعيون عن المعركة .. كان بنو إسماعيل يتقدمون الصفوف .. يتوسطهم فهر بن مالك .. يشجع الرجال ويحثهم على القتال، ويقوي إيمانهم بالدفاع عن البيت، يحيط به أحفاده: لؤى وتيم وأسد، والتقى الجيشان، ودارت المعركة .. رهيبة قاسية، وارتفعت الصيحات، وتلاقت السيوف، وتناثرت الأشلاء وجثث القتلى، حتى كانت الغلبة لبني إسماعيل وحلفائهم، والهزيمة لليمنيين، وقبض على تبع أسيرًا، وسيق إلى الكعبة.. يتعثر في خطواته وهزيمته .. لشد ما يحزنه أن يرى الناس يطوفون بالبيت الذي جاء ليهدمه .. كم يعجب الرجل حين يشتد ظلام الليل وهو في أسره، فإذا به ينظر إلى الكعبة، فيرى كأن نورًا يشع بين جنباتها، فيخيل إليه أنه مولد فجر جديد، ولكن ليله يطول!

وتفقد فهر رجاله بعد المعركة، فراعة ألا يجد حفيده (قيس)، فأدرك أنه استشهد دفاعًا عن بيت الله، وبقى تبع سجينًا في مكة،

حتى استطاع رجاله أن يفتدوه المال، ليعود إلى بلاده .. يجر معه أذيال خيبته .. يمضي في طريقه .. كأنه يطأ الشوك، أو كأنه يمشي على حراب صخر متقدة .. يكاد قلبه يتنزى من صدره مما أصابه من جراح .. لا يملك إلا دمعة لا يستطيع إرسالها، وزفرة لا يستطيع تصعيدها!!. لكن القدر لم يمهله، فمات في الطريق.

ترى .. متى كان لرماة السهام أن يصيبوا الشمس في علاها؟!

* * *

(٩)

جلس تبع اليمني في مجلس له مع كبار قومه .. يتناقشون في أمور مملكة حمير .. من أجل مستقبل أكثر سعادة، فقد عرف اليمن منذ زمن بعيد بما أفاء الله عليه من نعم دون غيره من شبه الجزيرة العربية .. أمطار وفيرة .. تربة خصبة .. زروع وثمار.

فبينما هو في مجلسه .. دخل عليه رجال .. قالوا فيما قالوه: إنهم من هذيل .. واحدة من تلك القبائل العربية .. حتى إذا اتخذ الرجال مجلسهم مع الملك .. قال أحدهم:

- مولاي: إنما جئنا نبتغي لك الخير، وإنا لنعجب من أمور قوم يجاورونك .. ينكرون دعوة موسى، ويفخرون ببيت آلهتهم.. أصنامًا يتقربون بها إلى غير الإله (يهوه):

قال تبع .. وقد أيقظته الكلمات:

- وما أمر هؤلاء، وأمر بيت آلهتهم؟

- إنه بيت بناه جد لهم منذ أمد بعيد .. يطوفون حوله .. يدعون باقي قبائل العرب والعجم وغيرها للحج إليه.

قال تبع:

- ما أعلم من أمر هذا البيت .. إلا أنه بناء متهالك .. عفا عليه الزمن .. بُنى في أرض لا زرع فيها ولا ماء .. حتى تلك الآلهة التي

تتناثر حوله .. يعلوها التراب، فما يستطيعون أن يرفعوه عنها!

قال أحد رجال هذيل في لهفة:

- ليس هذا يا مولاي. فهذا البيت مليء بالكنوز .. من ذهب ولؤلؤ وتحف وياقوت وأموال ..

وقال رجل آخر:

- لو أن مولاي قُدِّر له أن يهدم هذا البيت، ويصرف الناس عنه .. لكان له في ذلك ولليمن رفعة بين الأمم، وإعلاء لدعوة موسى.

وأحس الملك، كأن الصدق فيما يقوله الرجال.. وتمنى لو قدر له أن يهدم الكعبة، ويستولى على ما فيها من كنوز وذهب، ثم لينتقم لأسلافه الذين فشلوا فيما أقدموا عليه، فجمع رجاله، وتشاوروا، وأجمعوا أمرهم - إلا قليلاً منهم - على مهاجمة الكعبة.

كان جيشًا كبيرًا .. يقوده الملك بنفسه .. زود بالأسلحة والعتاد .. هدفهمم جميعًا بيت الكعبةِ .. يدفعهم الحقد والطمع والانتقام .. فبينما هم ماضون في طريقهم .. يهبطون الأودية، ويصعدون الروابي والآكام.. هبت عليهم ريح عاصفة .. حسبها بعضهم بشير أمطار .. لكنها كانت سوداء .. غطت السماء فوقهم .. حتى ليُخيَّل إليهم أن الليل قد أطبق عليهم بسواده وظلامه، فما عادوا يستقيمون على الأرض، تدفعهم هنا، أو تلقي بهم هناك، وقد اقتلعت

خيامهم، فتناثروا في العراء .. يُنكر بعضهم بعضًا، وما يدرون من أمرهم إلا الخوف .. تضيق نفوسهم بما يتصارع في داخلهم من فزع!!

حتى إذا هدأت العاصفة قليلاً .. استدعى الملك بعضًا من أحبار اليهود، وقال لهم:

- كم يحيرني أمر هذه الريح التي نزلت بنا، وما تركنا ديارنا إلا من أجل الخير لدعوة موسى!!

قال أحد الأحبار في نبرة نصح:

- وحق يهوه يا مولاي .. ما نرى في هذه الرياح إلا غضبة السماء .. أنزلها الله، ولخير لنا أن نعود إلى اليمن، وكفانا مشقة الطريق .. ولندع الكعبة وأمرها لأصحابها..

لكن الملك لم تعجبه كلمات اليهودي، ولم يكن ذلك ليمنعه من كنوز الكعبة. فصرف أحباره .. مستهزئًا بهم، ثم مضى في طريقه إلى مكة.

اقترب الملك من الكعبة، فأحس بما يحس به الظامئ حين يجد شربة ماء .. لكنه شعر بوهن في جسده .. خُيل إليه أنها مشاق السفر، فهدأ في خيمته .. وغافله الغمض لحظة .. فرأى في حلم له .. كأنه فوق قمة جبل عال .. تكتنفه وديان سحيقة .. ارتاع لها .. ثم أحس كأن يدًا خفية تدفعه .. تقذف به إلى القاع .. لولا أنه

اصطدم في طريقه بكتلة من حجر ضخم .. أدمت رأسه .. أوجعته، فاستيقظ صارخًا، فراعه ما يشعر به من آلام حقيقية .. كأن رأسه قد شق نصفين، فمد يده إليه .. يتحسس موضع آلامه، فإذا قيح نتن الرائحة .. ينبعث مما علق بيديه، وإذا رجال من حوله يعانون مما يعانيه، حتى غدت هذه الروائح الكريهة تفسد على الرجال حياتهم، وما بهم طاقة على المضى في الطريق!! وعزت عليهم العودة إلى ديارهم .. وآثر بعضهم الموت على حياة الآلام.

عند ذلك أدرك الملك – وهو يستعيد صور حلمه – انه على شفا حفرة .. يكاد يهبط فيها، فجمع أحباره، وسألهم أمره، فقالوا:

– يا مولاي .. إنها مكة.. فيها بيت الله الحرام .. بناه إبراهيم جد الأنبياء .. جد موسى ويعقوب، ليكون حرمًا آمنًا .. يهدأ إليه الناس .. يُطعمون من جوع .. حفَّته الملائكة، وباركه إبراهيم .. ومن أرضه يخرج نبي جديد يدعو الناس إلى الحق.. ينتشر دينه، وتعلو كلمته.. هكذا تحدثنا التوراة، ورب موسى ما نرى خيرًا إلا أن نعود إلى ديارنا في اليمن، وكفانا ما وقع لنا.

قال الملك:

– ونترك الأموال والذهب والجواهر لمن يعبدون الأصنام؟.

قال أحد الأحبار:

– ورب موسى يا مولاي .. لقد كذبك الهذليون فيما زعموه،

وما بالبيت تحف أو كنوز.

كان رجال هذيل قد صحبوا ملك اليمن في رحلته.. يدفعهم حقدهم على الكعبة لمكانتها بين العرب .. يزيِّنون له النصر ويرشدونه إلى الطريق.

استدعى تبع رجال هذيل، فراعهم ما كان من أمره، وهو في مرقده..لا يقوى على الحركة، وضيَّق الأحبار عليهم الخناق؛ فاعترفوا بالحقيقة .. اعترفوا بحقدهم على ما تبوأه عرب مكة بفضل بيت الله، فأمر تبع، فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، ودكت أعناقهم.

هدأ تبع في خيمته .. يستعيد ما حدث له، ويتذكر ذلك الحلم الذي رآه ذات يوم قريب، ثم نظر في الأفق نظرة بعيدة .. يدعو رب موسى أن يمنحه الرشاد، وأن يبرئه مما حاق به، فحانت منها التفاتة نحو مكة.. فأحس كأن نورًا ينبعث من بيت الله، وهوت نفسه أن يرى الكعبة، فترك جنده ومضى وبعض من رجاله إلى الكعبة، وطافوا بالبيت، فشعر بسعادة لم يألفها من قبل، وتوافدت الدموع غزيرة إلى عينيه، كأنه يغتسل بها مما علق بنفسه من أدران الحقد .. حتى إذا انتهى من الطواف .. شعر بإشراق يتسلل إلى قلبه، وأن آلامه تتسرب من جسده، ومسح على رأسه، فإذا هو قد بُرئ من علته، فحمد ربه.. رب الكعبة ورب موسى وإبراهيم وإسماعيل، ثم هتف برجاله:

- فاذبحوا الذبائح أيها الرجال .. اعترافًا برب الكعبة.

قضى تبع بعض أيام على مقربة من الكعبة .. يسعده كل يوم أن يرى الشمس وهي تغمر الوادي المقدس بضوئها، فيزداد البيت إشراقًا وبهاء، والناس حوله .. يطوفون .. يلبُّون .. يبتهلون.

كم تمنى لو طال به المقام في هذه الأرض المباركة، ولكنه لا يملك إلا أن يرحل إلى دياره .. حيث أهله وولده ومملكته، وقبل أن يفعل ..أهدى الكعبة الهدايا، وجعل لها بابًا بمفتاح يقفل ويفتح حسب الحاجة.. وكساها كساء جميلاً مما يصنع في اليمن، ولسانه يقول:

- ذلك فضل الله .. يؤتيه من يشاء.

* * *

(١٠)

لم يكن للخزاعيين دور في مقاومة هجمات تتابعة اليمن على مكـة، وإنما كان الفضل لله الذي شاء أن يحفظ بيته من أن تراق فيـه الـدماء، أو تنتهك حرماته .. كما كان لـبني إسماعيـل دور في تجميـع صـفوف أهـل مكة للدفاع عن بيت الله .. حتى استشهد بعض رجالهم.

ولم يكن لما حدث في مكة عظة تصرف الخزاعيين عمـا يفعلـون وما يقترفون في حق الكعبة وأهل مكة من سيئات، فهم الذين نصبوا الأصنام حول الكعبة.. يترسَّمون خطوات زعيمهم حين وضع هبـل في الكعبة، وتبعه آخرون، فشرعوا بذلك شرعة كفر .. حتـى أصـبح في مكة وما حولها عدد كبير من الأصنام .. يختـص كـل صـنم منهـا بقبيلة أو عدة قبائل!!

ولم يكتف الخزاعيون بما أجرموا في حق الكعبة وديـن إبـراهيم .. بـل حاول بعضهم تغيير كلمات التلبية التي كانت معروفة منذ عهد إبـراهيم .. إلى كلمات أخرى تبعد الناس عن وحدانية الله، وابتـدع بعضـهم الطـواف حول الكعبة، وهم عرايا الأجسام .. زاعمين أنهم يفعلـون ذلـك حتـى لا يكون طوافهم بالبيت، وهم يرتدون ملابس اقترفوا بها السيئات[١].

---

(١) يطلق على هؤلاء (الحمس) وهم أبناء البلد المقيمـون، ومـن خصائصـهم أنهـم لا يعظمون شـيئًا مـن الحـل (وراء الكعبـة)، وهـم لا يخرجـون في موسـم الحـج إلى عرفات وإنما يقفون بالمزدلفة، ولا يسكنون في بيـوت مـن الشـعر والصـوف وإنمـا يسكنون قبابا.

وما عادت أموال الكعبة تنفق في وجوهها الصحيحة، وإنما كانت توزع على سادة خزاعة .. ينفقونها على أهوائهم وملذاتهم ومجالس لهوهم!!.

وغدت مكة في ذلك الوقت، وقد دجا ليل الحوادث حولها، وانغمس الناس في معتقدات خاطئة، ووجد الكهان والعرافون في هذا فرصة للتكسب وتضليل الناس الذين يلجأون إليهم للاستشارة في شئون الحياة؛ كالسفر والزواج والنسب، وانتشرت الخرافات، حتى غدت عقائد صدقها الناس. فأصبح إساف ونائلة – وهما رمزا الخطيئة لما اقترفاه من فاحشة في الكعبة – إلهين .. يتقرب الناس إليهما، وينحرون لهما الذبائح .. بل كانا من أعظم الآلهة!!

كادت معالم الدين الحنيف، دين إبراهيم .. تندثر وسط هذا الخضم الزاخر من الضلالات، حتى لقد انحرف بعض بني إسماعيل عن دين جدهم، وتفرق بعضهم خارج مكة، إلا قليلا ممن آثروا البقاء عليه، وحاولوا أن يدارسوه لغيرهم، كما فعل كعب بن لؤى.

كان كعب بن لؤى أحرص الناس عن الابتعاد بقومه عن عبادة الأصنام، وكان يعلم ممن اتصل بهم من يهود يثرب أو نصاري الحيرة.. أن موسى ويسوع قد بشَّرا بظهور نبي جديد يعيد الناس إلى وحدانية الله. هكذا جاء في التوراة[1] .. من أجل هذا بقى كعب حافظًا على العهد لدين إبراهيم، وخلفه من بعده ابنه (مرة) ثم كلاب بن مرة، ولكن صيحات

(١) تثنية ١٨- (١٠- ١٨).

هؤلاء ضاعت وسط أنواء الكفر والضلال التي أرسى قواعدها الخزاعيون .. حتى غدا الناس أشتاتًا وأشياعًا.

ولأن الخزاعيين كانوا يترصَّدون لكل محاولة لتنوير الناس إلى الحقيقة، فتآمروا على كلاب بن مرة وطردوه خارج مكة.. تصحبه زوجه فاطمة بنت سعد وولداه زهرة وزيد .. كم كان كلاب حزينًا لمفارقته أهله وعشيرته، ولكنه لا يملك إلا أن يرحل، ليقضي بقية عمره بعيدًا عن مكة .. يرعى بعض أغنام وإبل، ولم تطل به الحياة، فقد أعجل به الحزن إلى نهايته، وترك زوجه وولديه.

في تلك الفترة .. قدم إلى مكة رجل من قضاعة، وهو ربيعة بن حرام من بني عذرة .. شاء الله له أن يتزوج من فاطمة بنت سعد، فعاد ولده زهرة إلى مكة .. بينما رافقها وزوجها طفلها الصغير زيد .. حيث اتجهوا إلى ديارهم في أرض عذرة من أشراف الشام، وهناك تربى زيد بن كلاب مع أمه وزوجها وإخوته لأمه دون أن يدري حقيقة نسبه .. حتى إذا اشتد عوده .. عرف حقيقة أهله، وأنه من بني إسماعيل، وليس من قضاعة، فقرر العودة إلى مكة .. ولتكن لله فيما شاء حكمة هو أعلم بها.

جاء زيد(١) الذي عرف فيما بعد باسم (قصي) إلى مكة حاجًا، فسعد سعادة أنسته ما عاناه من غُربة .. شعر كأنه يتنسم ريح جده إسماعيل، فقد عرف من أمر قومه أنهم بناة الكعبة، و أن جدتهم

---

(١) سمي بقصي لأنه تربى بعيدًا عن مكة، وهو واحد من أجداد رسول الله.

هاجر هي أول من سكن أرض مكة، فأيقن أنه أحق الناس بقومه ووطنه وبيت الله الذي بناه جداه إبراهيم وإسماعيل، وساءه أن يجد بيت الله يتولاه قوم من خزاعة، هم أبعد الناس عن إبراهيم وإسماعيل، فكان عليه أن يستعيد حقه.

انتهى قصى من طوافه حول الكعبة، ثم جلس عندها .. يستعيد أحداثًا مضت عليه، وأحداثًا عرفها عن أبيه وأجداده، ويفكر فيما آل إليه أمره، فدعا الله أن يوفقه في استعادة الولاية على البيت.

عُرف عن قصى أنه كان حكيم العقل، قوى الإدراك، سريع الفهم، ولم يكن حزنه على حق أجداده ليبعده عن الحق أو يجعله يشط في عداوته، فقد كان قلبه ينطوي على جوهر طيب .. بعيدًا عن غشاوة الجاهلية، ونزعات الانتقام . ومن أجل ذلك استحوذ على حب كثير من الناس، فأنسوا إليه، وتقربوا منه، ولأمر شاءه الله، ذهب قصى إلى حليل سيد خزاعة، وما كان يدري أن هذا اللقاء سيكون فاتحة خير له، وكان بينهما حديث، وأعجب حليل الخزاعي بحكمة قصى واتزانه، وكان بينهما مصاهرة.. حيث تزوج قصى من حيى بنت حليل، فكانت رابطة قربى بين خزاعة وبنى إسماعيل.

كان قصى يتابع ما يدور حوله، فالأمور في مكة تسير على غير هدى .. لذا كان عليه أن يعيد الحقوق إلى أصحابها، واستطاع أن يكتسب ثقة صهره، وكان معه مفاتيح الكعبة، ولئن سكت بعض الخزاعيين على هذا الأمر .. إلا أن العداوة بدت واضحة بينهم حين حضرت الوفاة زعيمهم

حليل، وسلم مفاتيح الكعبة لقصى ليتولاها بدلاً منه.

وأسفر الخزاعيون عن عداوتهم لقصي، فنقضوا ما أولاه به صهره من ثقة دونهم، وحاولوا استعادة مفاتيح الكعبة منه، وشعر قصي بما يضمره له بنو خزاعة من شر بات واضحًا في معاملتهم له، فأرسل إلى أقاربه في قضاعة .. يستنجد بهم، فجاءه أخوه من أمه (رزراح) بن ربيعة في رهط من إخوته لأبيه وقومه، وانضم إليهم بنو قريش وبنو كنانة في قوة يتزعمها قصي.

وعلى الطرف الآخر.. كان الخزاعيون، قد أجمعوا أمرهم وتحزب معهم بنو بكر .. يستعدون للمعركة.

ابتعد الطرفان - بعد أن اشتجر بينهم الخلاف - عن الكعبة حتى لا تدنسها الدماء أو تنتهك فيها الحرمات، ويصيبهم ما أصاب بني جرهم ذات يوم من عقاب .. لكنهم كانوا مصرين على القتال، فما كاد الحجيج ينتهون من الوقوف بعرفات، حتى تلاقى الفريقان في منى في مكان يسمى مفضى مأزمي مني[1]، واستمات كل منهما في الدفاع عن حقه لانتزاع النصر، وسقطت جثث القتلى، وتناثرت أشلاء الجرحي، وسالت الدماء غزيرة تخضب أرض منى، دون أن ينجلي الموقف عمن تكون له الغلبة.

وأحست القبائل في مكة وما حولها بمقدار ما سيحيق بالناس من شر قد يصيب بيت الله، فأجمعوا أمرهم لوقف القتال بين الطرفين

(١) عرف فيما بعد بالمفجر، وهو مكان خلف الجبل المقابل لجبل ثبير.

المتنازعين، واحتكموا إلى حكيم لهم، هو يعمر بن عوف الذي عرف برجاحة فكره وعدالة حكمه، وتدارس يعمر الموقف في المسجد حول الكعبة، وحكم لقصى وبنيه بالولاية على مكة والبيت .. على أن يبقى بنو خزاعة في منازلهم ورباعهم ومساكنهم لا يخرجون منها.

وبذلك استتب الأمر لقصى بن كلاب، وكانت له الرفادة والسقاية والقيادة واللواء، فكان أول رجل من بني كنانة أصاب ملكًا، وأطاعه قومه.

وبدأت مكة عهدًا جديدًا .. حيث بدأ قصى المسيرة من أجل نهضة مكة وسعادة أهلها وضيوفها، وبفضل جهوده أصبحت مكة مدينة كبيرة واسعة، وارتفعت فيها المباني الحجرية، واتسعت مساحتها، وكانت منازل بني إسماعيل أقرب إلى الكعبة .. تليها منازل القبائل الأخرى.

واهتم قصى بأمور الحجيج ورعايتهم، والعمل على راحتهم، ولذلك حفر بعض الآبار خارج مكة؛ ليسقى حجيج البيت وأبناء السبيل، ومن أهم هذه الآباء بئر العجول[1]، وبئر عند الردم الأعلى[2] وجعل للحجاج طعامًا في منى.

وكان قصى أول من أوقد النار بالمزدلفة؛ ليهتدي بها الحجاج عند هبوطهم من عرفات.

قام قصى بهدم الكعبة، و إعادة بنائها، وكان هو الذي يشرف

(١) كان موضعها مكان دار أم هانيء بنت عبد المطلب فيما بعد.

(٢) كان مكانها غرب مسجد الراية حاليًا، وعرفت ذات يوم ببئر ابن المطعم.

بنفسه ويتولى البناء كما كان يفعل جداه إبراهيم وإسماعيل، حتى إنه كان يدعو بدعائهما.

- ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

ومما أضافه قصى إلى الكعبة .. أن جعل لها سقفًا من خشب الدوم وجريده؛ وبذلك يعتبر قصى أول من أعاد بناء الكعبة بعد إبراهيم وإسماعيل.

وعمل قصى على توثيق الصلات بين مكة وجيرانها، فاتسعت التجارة، وزادت موارد مكة من القبائل والحجاج، وبذلك انتعشت الحالة الاقتصادية لأهلها.

تعلم قصى خلال ما مر عليه من أحداث، وما كان من صراعه مع خزاعة .. أن ينتهج نهجًا جديدًا في تصريف ما وكل إليه من أعمال .. منهجًا يقوم على استشارة أولى الحكمة والرشاد من سادة مكة، ولذلك أنشأ دار الندوة.. يجتمع فيها سادة القوم .. يتدارسون شئون حياتهم، ويحلُّون ما غمض من مشكلات، فكانت دارًا للشورى .. امتدت على مدى سنين طويلة، وحققت نجاحات متعددة في حل كثير من المشاكل، وكانت منارة لحسن الرأي والشورى.

وهكذا طفرت مكة في عهد قصى طفرة واسعة .. جعلتها تناهض كثيرًا من مدن الدول الأخرى في الشام ومصر والعراق .. فضلاً عما كانت تتبوأه من رفعة ومكانة بفضل بيت الله .. لولا ما كان يريم على ظروفها من عبادة الأصنام التي استشرت وعظم

أمرها .. حتى بين بني إسماعيل .. الأمر الذي دفع ببعض الناس أن ينسبوا أبناءهم للآلهة مثل عبد اللات وعبد العزى.

ولئن كان قصي قد بذل الجهد في استعادة حق آبائه وأجداده في الولاية على الكعبة، فقد كان عليه أن يهيئ السلام والأمان لمن بعده .. لذلك حين طال به العمر، وأحس بدنو أجله .. تنازل لولده عبد الدار عن أمور البيت من السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة، فقد أدرك أنه أقدر على تحمل المسئولية من أخيه عبد مناف.

ثم خلف من بعدهم خلف .. اختلفوا .. فقد تصارع أبناء عبد الدار مع أبناء عبد مناف، وتنازعوا فيما بينهم حق الولاية، وانضم إلى كل من الفريقين من يشجعونهم على حقهم، فانضمت قبائل: بني أسد وبني زهرة وبني تيم وبني الحارث إلى عبد مناف، وانضم إلى الفريق الآخر الذي يتزعمه بنو عبد الدار: قبائل بني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدى .. بينما وقف على الحياد بين الطرفين بنو عامر وأحفاد فهر.

وكاد القتال ينشب بين الفريقين .. إلا أن مشيئة الله التي شاءت الاستقرار لبيته وأهل بيته .. هدت المتخاصمين إلى الاتفاق على اقتسام أمور الولاية، فانتهوا إلى أن تكون الرفادة والسقاية والقيادة لبني عبد مناف، وتكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار.

ومضت الحياة بالكعبة ومكة وأهلها. يتولى أمرها أحفاد بني إسماعيل .. يتوارثه الخلف عن السلف، فقام هاشم بن عبد مناف بما كان يقوم به أبوه.

استطاع هاشم[1] أن ينهض بمكة وبخدمة الحجيج، وحفر بعض الآبار مثل بئر سجلة، وكان يأتي بالمياه من خارج مكة ليسقي الحجيج، وهو الذي استن رحلتي الصيف والشتاء إلى الشام واليمن.

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١- ٤].

ارتحل هاشم ذات يوم مع قافلة تجارة إلى الشام، فمر على يثرب، وهناك تزوج من سلمى بنت عمرو بن عدى من بني النجار .. امرأة من سيدات القوم وأشرافهم، فأنجبت له ولده (شيبة الحمد)، ثم شاء الله أن يودع هاشم ولده وزوجته لتنتهي حياته في غزة[2]، وبقى ابنه شيبة في رعاية أخواله بني النجار، ولكنه كان يحن إلى مكة أرض أبيه وأجداده.. حتى جاء عمه المطلب لزيارته، فعاد به إلى مكة على راحلته، فسمى بعبد المطلب، وكم سعد عبد المطلب حين دخل الكعبة، وطاف بها، حتى إذا مات عمه المطلب ولم يخلف ذرية بعده .. أصبحت لعبد المطلب الولاية، وصارت له الرفادة والسقاية، ثم صار له في كتاب التاريخ صفحات وصفحات!!

* * *

(١) كان اسمه (عمرو) وهو جد رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن قصى، وقد اشتهر عنه أنه كان يهشم الخبز في الثريد ليطعم الحجاج.

(٢) كانت تسمى غزة هاشم نسبة إليه.

(١١)

دخل عبد المطلب المسجد ذات يوم، وطاف بالبيت، وقد غمره إحساس بالسعادة والرضا .. حتى إذا انتهى من طوافه .. عمد إلى حجر إسماعيل، فجلس عند جدار الكعبة يتفيأ بظلالها، كأنها دوحة خضراء وارفة أوراقها .. وهبت من الكعبة ريح عطرة .. أعادت إلى ذهن الشيخ ذكريات محببة إلى نفسه، فبينما هو كذلك .. خالط جفنيه سنة من الغمض، فسمع هاتفًا يهتف به:

- يا عبد المطلب .. احفر طيبة .. طيبة .. طيبة.

قال عبد المطلب:

- وما طيبة؟!

لكن صوت الهاتف اختفى دون أن يرد عليه سؤاله، فاستيقظ يمسح عن عينيه آثار غمضه، وما يزال صوت الهاتف يدق سمعه، ولكنه لا يدري ما طيبة حتى يحفرها .. كم يحيره السؤال، وإن كان يحس فيما سمعه بشرى لخير!!

عاد عبد المطلب إلى داره .. علَّه يجد عند زوجه سمراء بنت جندب، وأم ولده الحارث ما يريح خاطره، فما كاد يدخل إليها .. حتى استقبلته - كالعهد بها - بكلمات صافية .. أضاءت نفسه، ومسحت عنه قلقه، وما كان عبد المطلب ليخفي عن زوجه سرًا، فكاشفها بأمره، وأنبأها بما هتف به الهاتف.

قالت سمراء، وقد أسعدتها كلمات زوجها:

- فارتقب غدًا، فلعل الهاتف يأتيك، فيبين لك غوامض كلماته.

فلما كان اليوم التالي .. اتخذ عبد المطلب مجلسه في حجر إسماعيل، وما يدري - وقد ألمَّ به الغمض - وهو يسمع صوت الهاتف يناديه.

- يا عبد المطلب .. احفر برة .. برة .. برة.

- وما برة؟!

لكن الهاتف اختفى كما فعل بالأمس ، دون أن يجيبه إلى سؤاله، واستيقظ الشيخ وقد زادت حيرته، ومضى إلى داره، فلقيته زوجه في لهفة، تحدثه بكلمات صافية .. تنفض عنه أثقال أفكاره، وهي تقول له:

- فارتقب غدًا، فلعل الهاتف يأتيك، فيبين لك غوامض كلماته.

وحينما عاد عبد المطلب إلى مجلسه في اليوم التالي، وغفت عيناه .. جاءه صوت الهاتف يناديه:

- يا عبد المطلب .. احفر المضنونة .. المضنونة .. المضنونة.

- وما المضنونة؟!

لكن الهاتف اختفى .. حتى إذا استيقظ عبد المطلب .. زادت حيرته، وفكر أن يذهب إلى أحد الكهان؛ يسأله تفسيرًا لما يسمع .. لكن زوجه سمراء قالت له في ثقة:

- هوِّن عليك يا أبا الحارث، ولا تغلُ في الخوف، ولا تسرف في الإشفاق .. ما أكثر ما يلم بالناس هذا الطيف في البادية.

وسكتت سمراء قليلاً .. تقرأ ما بدا على وجه زوجها .. ثم عادت تقول:

- وماذا يمنعك من أن تتقرب إلى الآلهة .. قم، فضحِّ لها، وتقرب إليها، فسترضى الآلهة عنك، وسيرضى الفقراء والجائعون.

ونزلت كلمات سمراء على صدر زوجها بردًا وسلامًا، فأسرع إلى الكعبة، ونحر للآلهة الإبل، فطعم منها القوم، وسعد بها الفقراء .. حتى الوحوش والطيور..

في اليوم التالي .. اتخذ عبد المطلب مجلسه في حجر إسماعيل، وجاءه صوت الهاتف يناديه.

- يا عبد المطلب .. احفر زمزم .. زمزم.. زمزم.

- وما زمزم؟

ولدهشة عبد المطلب جاءه صوت الهاتف يقول له:

- لا تنزح ولا تذم .. تسقي الحجيج الأعظم.

- وأين هي؟!

- بين الفرث والدم .. عند نقرة الغراب الأعصم ..عند قرية النمل.

واستيقظ عبد المطلب، فسعد بما سمع، وقال في نفسه:

- الآن .. قد وعيت.

كان عبد المطلب سيد مكة، وكانت له الرفادة والسقاية، وكم كان يشقي من أجل الحصول على الماء لسقاية الحجيج، فالأمطار في مكة نادرة .. نادرة.. والطبيعة حرمتها من الأنهار، فما للناس والحجيج في هذه البادية إلا مياه الآبار التي كادت تنضب .. إنه يعلم أن كثيرًا من القبائل حفرت لها آبارًا، فاحتفر بنو تيم بن مرة بئر مرة، واحتفر بنو عبد شمس بئري الطوى وسجلة، وحفر أمية بن عبد شمس بئر الحفر وبنو عبد الدار بئر أم أحراد وغيرها .. من أجل ذلك وجد عبد المطلب فيما هتف به الهاتف شرفًا له ولبنيه من بعده، وأي شرف أن يعيد حفر بئر زمزم التي أنبعها الله عند قدمي جده إسماعيل ذات يوم بعيد.

قضى عبد المطلب – بعد أفضى بحديثه إلى زوجه – ليلة يفكر في الأمر .. حتى إذا أشرق الصبح، وبدأ قرص الشمس في الأفق ينفض عن مكة وما حولها غبار الظلام، ويمسح بيد نوره على الكون بقايا فلول الليل .. اتخذ عبد المطلب طريقه إلى الكعبة .. حاملاً فأسه .. يصحبه ولده الحارث .. حاملاً مِكتله .. حتى إذا وصلا إلى هناك .. نظرا حولهما إلى تلك الآلهة التي تملأ المسجد حول الكعبة، فرأيا غرابًا ينقر الأرض .. ما بين صنمي إساف ونائلة، فأدرك عبد المطلب أنه المكان الذي حدده الهاتف لبئر زمزم.

كان بالمسجد بعض الناس الذين انصرفوا إلى الطواف حول الكعبة .. بينما راح عبد المطلب وولده الحارث يزيلان الرمال .. هذا يحفر بفأسه، وهذا يحمل الرمال في مكتله، ليلقى بها بعيدًا، وكل منهما يقرأ على الآخر صورة سعادته .. تلك السعادة التي لم يحجبها عن وجهيهما الغبار المتصاعد الذي اختلط بحبات العرق التي تفصَّد من جبينيهما .. فما هي إلا ساعة، حتى اصطدم فأس عبد المطلب بحجر كبير .. أزاحه عن مكانه، يساعده ولده .. فأيقن أنه بداية الطريق إلى غايته.

لكن بعضًا من الرجال أقبلوا عليهما .. يعلو الغضب وجوههم .. تسبقهم صيحاتهم .. يطلبون من عبد المطلب أن يكف عما يفعل .. كان هؤلاء ممن فتنتهم عبادة إساف ونائلة، فرأوا فيما يفعله عبد المطلب اعتداء على آلهتهم . قال أحدهم:

- هذه آلهتنا، وهذا مذبح لنا .. نقدم فيه القرابين لها.

وقال الثاني:

- فما يدفعك إلى أن تنتهك حرمة آلهتنا يا شيخ مكة، وحامي حمى البيت؟

وقال ثالث:

- ورب الكعبة لن نتركك تعبث بحقوق آلهتنا.

كانوا كثيرين، وما يملك عبد المطلب - وليس لـه مـن ولـده إلا ابنه الحارث - إلا أنه يحس بالضعف .. لولا إيمانـه بخـير مـا يفعلـه، فقال:

- يا قوم .. دعوني، فورب الكعبة إنه الخير لكم.

- وأي خير فيما تفعل يا شيخ مكة؟

- إنه بئر زمزم .. أمرت أن أعيد حفرها، فدعوني ومـا شـئت، ولا تحولوا بيني وبين مـا أرجـوه مـن خـير .. ولـتكن زمـزم مـوردًا لحجيج بيت الله كما كانت أيام إسماعيل، ولعل الله يجعل مـن مكـة دوحة خضراء .. كما هي دوحة سلام وأمان.

وأقبل إلى الكعبة كثير من الناس .. لعلهم جاءوا ليشـهدوا مـا يحدث، أو ليطمئنوا على آلهتهم، واختلفـوا في الأمـر .. فمـنهم مـن ساند عبد المطلب، ومنهم من عشيت عيـونهم عـن الحـق، فـأنكروا على الشيخ ما يفعله..

وعاد عبد المطلب في إصرار إلى عمله، فما كـاد يضـرب فأسـه، حتى اصطدم بشيء ما، فاستخرجه، فإذا همـا غزالتـان مـن ذهـب، فصاح بعض الناس:

- حياك الله يا عبد المطلب .. وحق الآلهة .. إننا نؤازرك.

قام عبد المطلب وولده الحارث برفـع الغـزالتين الـذهبيتين مـن البئر، وما تبعهما من دروع وأسـياف.. تلـك الـتي دفنهـا مضـاض

الجرهمي ذات يوم بعيد، حين أحس بهزيمة قومه، وأهال عليها الرمال والحجارة.. فضاعت معالمها، وطمرت مياه البئر.

ومضى عبد المطلب وولده في عملهما .. حتى نبع ماء البئر[1] صافيًا .. أعاد إلى الناس صورة جدهم إسماعيل وجدتهم هاجر، فشكروا للآلهة فضلها، وحمدوا لعبد المطلب جهده.

لكن القوم نازعوا عبد المطلب فيما وجده في البئر، فاحتكموا إلى الآلهة، وضرب صاحب القداح قداحه، فخرج قدح الكعبة على الغزالتين الذهبيتين، وخرج قدح عبد المطلب على السيوف والدروع، ولكنه وهبها للكعبة، وضربها على بابها، فكفاه فخرًا أنه أعاد حفر زمزم؛ لتكون للحجيج ريًا على مدى السنين.

ولم ينس عبد المطلب وهو يستروح نسمات فرحة النصر .. ما أصابه من قلق حين أحس بالضعف لقلة ولده أمام كثرة معارضيه .. من أجل هذا نذر نذرًا .. لئن منحته الآلهة عشرة نفر .. ليذبحن أحدهم قربانًا لها عند الكعبة.

ترى .. هل يفي عبد المطلب بنذره؟!

---

(١) ماء زمزم، قلوي، تكثر به الصودا والكلور والجير وحامض الكبريتيك وحامض الأوزتيك والبوتاس. تقع بئر زمزم على بعد ٢١ مترًا من الكعبة، لها فتحات مغذية من عدة اتجاهات. عمقها ٣٠ مترًا. في العصر الحديث. أقيمت حجرة يأتي إليها ماء زمزم بواسطة محطة رفع. وكان في الحجرة عدة صنابير. أزيلت هذه الحجرة الآن لتوسعته المطاف حول الحرم ونقلت الصنابير إلى البدروم.

(١٢)

استمرت الحياة في مكة على سيرتها التي ألفها الناس .. تغمر السعادة أهلها، والأمان يشملها، والسلام يرفرف عليها بجناحيه، والمسجد حول الكعبة عامر بالطائفين الذين زاد عددهم عامًا بعد عام .. والآلهة تتناثر أصنامها في صحن المسجد أو في داخل الكعبة .. يتقرب الناس إليها، ويتبركون بها، ويسألونها الخير والسلامة، وقوافل التجارة تمضي ما بين اليمن والشام والعراق ومصر حاملة البضائع .. عائدة بربح موفور.

وكان عبد المطلب سيد مكة .. أكثر الناس سعادة، وهو يؤدي ما وُكل إليه من واجبات السقاية والرفادة للبيت وزواره .. كم أسعده إعادة حفر بئر زمزم، وكم من المرات نظر إليها، فتوافدت إلى ذهنه ذكريات كثيرة .. يطيب له أن يستعيدها، وهو لا ينسى ما شعر به من ضعف لقلة ولده يومذاك، فتعرض له الرجال يمنعونه وما شاء!! .. يومها.. نذر لئن ولد له عشرة نفر، ليذبحن أحدهم عند الآلهة قربانًا لها، ومن أجل الولد .. أضاف عبد المطلب إلى زوجه سمراء بنت جندب .. زوجات أخريات، لينجبن له البنين والبنات.

حتى إذا اكتمل أبناء عبد المطلب عشرًا .. كان عليه أن يذبح أحدهم عند الكعبة .. وفاء للنذر الذي قطعه على نفسه في ذلك اليوم البعيد.

وأشرقت شمس الضحى في أحد الأيام من عام ٥٧٠ م، وقد امتلأ المسجد حول الكعبة بالناس الذين جاءوا، ليشهدوا أمرًا لم يكن لهم به عهد، فقد كان اليوم هو موعد اختيار الآلهة لواحد من أبناء عبد المطلب، ليكون فداء لنذر أبيه.

وأقبل عبد المطلب .. يحيط به أبناؤه .. تتبعهم بعض زوجاته وبناته، ليشهدن ما يدور في الكعبة، ولكنهن لا يستطعن أن يمسكن أحزانهن التي بدت على وجوههن .. الخوف يسابق خطواتهن، وبصيص أمل يتراءى لهن أن يصرفن عبد المطلب عما انتواه.

واقترب عبد المطلب من كاهن هبل، وقال:

- يا صاحب القداح .. لقد نذرت للآلهة ذات يوم لئن ولد لي عشرة نفر، لأذبحن أحدهم قربانًا لها، وهاهم أبنائي، فاضرب قداحك عليهم، فمن خرجت القداح عليه .. كان فداء لنذري.

وحاول بعض القوم أن يصرفوا عبد المطلب عما يفعل، لكنه رغم ما كان يشعر به من حزن .. لا يملك إلا أن يخضع لمشيئة الآلهة، وتهامس الناس فيما بينهم .. ترى من يكون وفاء لنذر أبيه؟!

ومع رائحة البخور التي عبقت بها الكعبة، وانتشر عطرها في المسجد.. ضرب صاحب القداح قداحه، و هو يعلن.

- هذا قدح عبد مناة[1]............. لم ترض به الآلهة.

---

(١) أبو طالب: كان اسمه عبد مناة.

- وهذا قدح الزبير .... لم ترض به الآلهة.

- وهذا قدح عبد العزى[1]...........لم ترض به الآلهة.

وبينما كان شرر القداح يتطاير، ويلمع وميضه في الهواء كان الناس لا يدرون ما يفعلون، ولا يملكون إلا أن يمسكوا آهاتهم في صدورهم، ودموعهم في مآقيهم!!.. بينما عاد صاحب القداح يضرب قداحه، وهو يقول:

- وهذا قدح عبد الله .. آثرته الآلهة .. رضيت به ليكونَ قربانًا لنذر أبيه!!

ووجم الناس حينًا، أعجزهم الحزن أن ينطق لسانهم، فعبد الله خير شباب مكة، وسكت عبد المطلب .. أسكتته المفاجأة، فعبد الله أقرب أبنائه إلى قلبه، فكيف تطاوعه نفسه أن يذبح ولده، ولكنه لا يملك إلا أن ينفذ ما شاءت به الآلهة.

ومضى عبد المطلب والسكين في يده .. يصحبه ولده عبد الله .. إلى إساف ليذبحه .. نفس الصورة التي كان عليها ذات يوم بعيد جده إبراهيم وولده إسماعيل!!

وأقبل القوم على عبد المطلب .. يحاولون أن يصرفوه عما يفعل .. قال أحدهم:

---

(١) أبو لهب: كان اسمه عبد العزى.

- يا عبد المطلب .. كيف يطاوعك قلبك أن تـذبح ولـدك عبـد الله؟!

- ....؟!

- وقال آخر:

- ترفق يا شيخ مكة بولدك.. خير شباب أهله.

- ....؟!

وجـاءت فاطمـة زوج عبـد المطلـب، وأم عبـد الله، وقـد غـام وجهها مما بلله من دموع وأحزان، وتعثرت الكلمات في حلقها وهي تقول:

- إنه ولدك يا شيخ مكة .. قرة عين لي ولك!!

- ....!!

وأقبلت سمراء أم الحارث .. تسـتعطف زوجهـا عبـد المطلـب، وهي تقول:

- يا شيخ مكـة .. تـذكر ولـدك الحـارث الـذي افتقدتـه فتـى، فاكتحل قلبك بالحزن عليه، فابق على عبد الله حياته.

وأطرق الشيخ مليًا .. أتراه كان يفكر في ولده الحارث يوم كـان يحفر معه بئر زمزم؟! بينما عادت سمراء تقول:

- يا شيخ مكة.. إن الجميع يـأبون عليـك ومـا تريـد أن تفعلـه بولدك!!

واحتبس صوتها، وغالبها البكاء .. حتى خيـل للنـاس أن عبـد المطلب قد سمع لها.

وأقبلـت صـفية بنـت عبـد المطلـب وأخـت عبـد الله، تقـول والعبرات تخنقها:

- بحق رب الكعبة يا أبتاه .. ارحم شباب الفتى، واحفـظ عليـه حياته.

فنظر عبد المطلب إليها وإلى من حوله، وقال:

- ولكنها مشيئة الآلهة .. رب الكعبة، وما أملك إلا أن أنفذ لها ما شاءت.

ومضى عبد المطلب بعبـد الله .. نحـو إسـاف، وهـو حـائر بـين عقيدته وحبه لولده ، فإذا صوت بعيد يأتي:

- يا شيخ مكة وحامي حمى الكعبة .. إنـك بهـذا تخـط طريقًـا، يتبعـك فيـه آخـرون، أفترضـى أن يـأتي الرجـال بأبنـائهم، فيريقـوا دماءهم عند الآلهة؟!

وتوقف عبد المطلب قليلاً، وقد عرف صاحب هذا الصـوت .. إنه المغيرة المخزومي، خال عبد الله، وعاد المغيرة يقول:

- ترفق بولدك يا عبد المطلب، فنحن لسنا أرحم به منك.

قال عبد المطلب:

- ولكنها مشيئة الآلهة، ووفاء لنذري .. لقد استمع إبراهيم لنداء ربه، وهمَّ بذبح ولده إسماعيل.

قال المغيرة:

- ولكن رب الكعبة حفظ إسماعيل لإبراهيم، وفداه بذبح عظيم، فهلا عذرنا في عبد الله، لعل الآلهة تقبل فداء له؟

ونزلت كلمات المغيرة على عبد المطلب بردًا وسلامًا، فقد أحس فيها مخرجًا من آلامه، فقال:

- فإن شاءت الآلهة ، فإبلي وشياهي فداء لعبد الله .. ولدي.

وعلا صوت الرجال، وقد أحسوا بالأمل يتسرب إلى قلوبهم، وهم يقولون:

- فإن إبل وشياه مكة كلها فداء لعبد الله.

وعاد المغيرة يقول:

- فهل لك يا أبا الحارث أن تبطئ الوفاء بنذرك .. حتى نذهب إلى عرافة خيبر، فنسألها المشورة والرأي؟

قال عبد المطلب:

- فإن رضيت الآلهة الفداء .. قدمت لها ما شاءت، وإن تمسكت

بعبد الله، فوحق رب الكعبة لا أملك أن أعصى لها أمرًا، وليمنحني الله الرحمة.

ومضت عدة أيام ..

.. وجاء يوم .. ازدحمت فيه الكعبة بالناس، فقد عاد عبد المطلب ومن معه من خيبر، وتعالت تَراتيل الكهنة، وانتشرت رائحة البخور.. تلهم الناس الدعاء لعبد الله، وكان عبد المطلب يطوف بالبيت يسأل الله أن يترفق به وبولده .. حتى إذا انتهى من الطواف .. اتجه إلى الكاهن، وقال:

- يا صاحب القداح .. فاضرب قداحك بين عبد الله وعشر من الإبل.

ضرب صاحب القداح قداحه بين لهفة الجميع، وقال:

- اختارت الآلهة عبد الله .. رفضت عشرًا من الإبل.

وحزن الناس .. بينما عاد عبد المطلب يقول:

- فاضرب قداحك بين عبد الله وعشرين بعيرًا.

ولكن الآلهة كانت ترفض العشرين والثلاثين والأربعين والتسعين بعيرًا، والناس حيارى مشفقون على الشيخ وولده وأمه .. بينما عاد عبد المطلب يقول:

- فاضرب قداحك على مائة بعير، فوحق رب الكعبة لن أضن

بها لعبد الله.

وتطلع الناس إلى صاحب القداح والأمل يداعب خيالهم، والدعاء تلهج به ألسنتهم، وصاحب القداح يقول:

- لقد خرجت القداح على المائة بعير .. رضيت الآلهة بها فداء لعبد الله.

وفرح الناس .. أسعدهم الإبقاء على حياة عبد الله، وكم سعد أولئك اللائي كن يتمنين الزواج به مثل: فاطمة بنت مرة، ورقيقة بنت نوفل.

وقام عبد المطلب، فذبح المائة بعير .. أطعم أهل مكة وما حولها، أطعم الإنسان والحيوان والطير..

هكذا شاءت إرادة الله، لأنه تعالى قد ادخر عبد الله لأمانة يعلمها.

* * *

(١٣)

سعد الناس في مكة بفداء عبد الله .. وشاء عبد المطلب أن يزيد سعادتهم، فما ابتعد عن الكعبة قليلاً .. حتى ذهب إلى بيت وهب من بني زهرة، ليخطب ابنته آمنة لولده عبد الله..

كانت آمنة واحدة من فتيات مكة اللاتي تمنين الزواج بعبد الله .. كن كثيرات، يطمعن في ذلك النور الذي يشرق به وجه الفتى .. لكن آمنة كانت أقربهن إلى قلبه، فقد تعارفا منذ كانا طفلين، يلعبان على روابي مكة وبين دروبها.. سعيدين بطفولتهما، فبينهما وشيجة قرابة .. ذلك لأن أبويهما : وهب وعبد المطلب ينتهي نسبهما إلى جديهما: زهرة وقصى ابني كلاب.

كانت آمنة جميلة الخلقة .. ناضرة الوجه .. صافية القلب .. نقية السريرة .. عذبة الصوت والحديث..

وزُف العروسان .. يتقاسمان معًا السعادة والحب، وينسجان معًا حلم الأماني والآمال .. ويرسمان حياتهما لمستقبل موفور الإشراق والهناء .. ترفرف عليهما رايات الأمان والحب.

وكان على عبد الله أن يمضي في حياته مثل أترابه من الرجال، يسعى إلى رزقه، لذلك اختار طريق التجارة والقوافل، فهي أكثر ربحًا وخيرًا .. من أجل هذا انضم إلى رجال من قافلة متجهة إلى الشام .. وودعته زوجه آمنة، وهي أكثر ما تكون شوقًا إليه .. داعية الله أن يحقق له السلامة في طريقه، والعودة بالخير.

لكن الأيام مضت، وعاد رفاق القافلة دون عبد الله، وعرف عبد المطلب وبنوه وآمنة أنه قد مرض في طريقه، فنزل عند أخواله بني النجار في يثرب، يلتمس الراحة والشفاء، وما تجد آمنة إلا أن تنتظر أوبة الحبيب .. وطال بها الانتظار دون أن يعود، فقد مات عبد الله .. هناك في يثرب .. وابتعد بمثواه .. وخلَّف وراءه أبًا ملتاعًا، وأما ثكلي، وزوجة حزينة عليه، وخلف فيما خلفه جنينًا في بطنها .. وديعة أودعها إياها، لتكون لها سلوى.

وبقيت آمنة .. وما يزال خضاب العرس في يديها .. تعيش على ذكريات زوجها .. تستعيد تلك الأيام القليلة التي عاشتها معه..

حتى كان ذات ليلة .. أسهدها القلق والحزن، وهي تفكر في أمرها، فهبت عليها نسمات رقيقة من جهة يثرب .. أعجلتها إلى الذهاب إلى فراشها، فما كاد يغمض جفنها .. حتى سمعت هاتفًا يناديها..

- يا آمنة .. لقد حملت بسيد هذه الأمة.

واستيقظت آمنة من غفوتها، وما يزال صوت الهاتف يدق مسامعها .. سيد هذه الأمة .. كم هي كلمات مشرقات .. أن يكون ابنها واحدًا من سادة مكة .. سيدًا في قومه .. أليس هو حفيد عبد المطلب، فهل يقدر له أنه يحتل مكانة جده؟

لم تكن تدري آمنة، وهي تستعيد كلمات الهاتف أن ابنها سيكون له شأن في الوجود، ولو كُشف عنها حجاب الزمن، لعرفت من أمر ولدها أنه سيكون رسول هذه الأمة .. داعيًا بدين سلام وتوحيد.

(١٤)

- وحق المسيح لأهدمنَّ الكعبة..!!

صرخة عظم صداها في أنحاء القصر .. أطلقها أبرهة ملك اليمن، وقد اشتد به الغضب .. حين جاءه من أنبأه أن أعرابيًا قد أحدث في كنيسته (القليس)، ولطخ جدرانها بالدنس والقاذورات.

نزع أبرهة التاج من على رأسه، و هو يقول:

- لن يطيب لي المقام هنا حتى أنتقم من العرب، وبيت آلهتهم.

كان أبرهة قد استقر له الحكم في صنعاء باليمن[١].. بعد هزيمة منافسه (أرياط) .. ساعده في ذلك عبده (عتودة) الذي استطاع أن يتلقى ضربة سيف أرياط، فيفتدي بها سيده، وقتل أرياط، ولكن بقيت آثار الضربة على وجه أبرهة وعلى شفته المشطورة، وجبهته المشقوقة .. لكنه غدا ملكًا .. جمع أطراف مملكته، وورث ملك الأقيال في حمير والأذواد في اليمن، فاجتمع له من الملك ما لم يجتمع لكثير من غيره.

---

(١) دخل الأحباش اليمن عن طريق جزيرة (دهلك) التي بحذاء ساحل عسير – حدث ذلك في عهد ذي نواس الذي اضطهد المسيحيين (قصة أصحاب الأخدود) .. هرب أحد المسيحيين، وشكا للإمبراطور الروماني ما أصاب المسيحيين في اليمن، فكتب الإمبراطور الروماني إلى نجاشي الحبشة لينتصر للمسيحيين، فغزا النجاشي اليمن، وولى أرياط أمره، ثم أبرهة..

كان أبرهة يدين بالمسيحية التي انتشرت عبادتها في اليمن في ذلك الوقت خلفًا لليهودية.. من أجل ذلك بني كنيسة أسماها (القليس)[1] .. داعيًا الناس لزيارتها؛ ليصرفهم عن الكعبة بيت آلهة مكة، فما كاد يسمع أمر ذلك العربي الذي دنسها .. حتى أصر على هدم الكعبة .. وأحقده أن ينصرف الناس عن بيته إلى بيت متهالك .. تكاد تتهاوى جدرانه .. بينما كنيسته آية من آيات الفن والعمارة.

جمع أبرهة جمعه .. حشدًا ضخمًا من الرجال والإبل والخيول .. يتقدمهم أبرهة ممتطيًا فيلاً ضخمًا، واتخذ الجميع طريقهم إلى مكة .. يجتازون الآكام، ويصعدون الروابي، ويهبطون الأودية، وتصدى له رجال من اليمن، ولكن أبرهة انتصر عليهم، وأسر زعيمهم (نفيل بن حبيب) وأخذه معه .. حتى إذا وصل أبرهة إلى الطائف .. أتاه سادتها مذعنين خاضعين.. طائعين، وقدموا له الهدايا والذهب كي ينصرف عن بيت آلهتهم (اللات)، وتطوع أحد رجالهم، وهو (أبو رغال) ليصحب أبرهة، يدله على الطريق إلى مكة، ولكن (أبا رغال) مات في الطريق، ودُفن في المغمس.

مضى أبرهة في طريقه .. حتى إذا اقترب من مكة .. راح يتطلع إليها .. يتخيل بيت الآلهة التي يتوسطها، فيجد نفسه ملفوفًا بمشاعر شتى .. الخوف والرهبة، والأمل، وكثيرًا ما كانت تعبث الهواجس

---

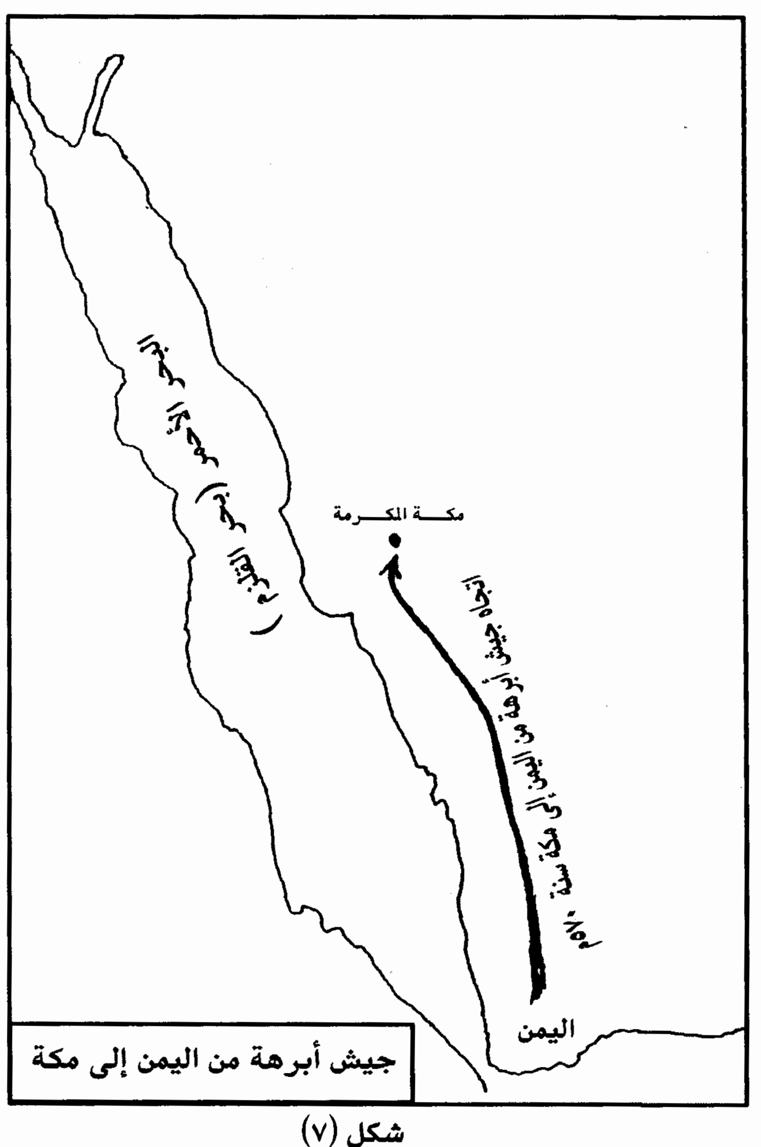
(١) نقل أبرهة كثيرًا من الأحجار والرخام والتحف من قصر الملكة بلقيس ملكة سبأ إلى كنيسته.

بعقله، حين يخاصمه الغمض .. لعله كان يتذكر أسلافه الذين جاءوا إلى الكعبة .. أولئك الذين هُزموا، وهؤلاء الذين هداهم الله، فطافوا بالبيت ونحروا عند آلهته، وكسوا الكعبة رداء من ديباج.

وانتشر خبر مقدم أبرهة ورجاله في مكة .. وقد عرف الناس ما كان من أمره مع القبائل الأخرى، واجتمع أهل مكة حينًا في الكعبة، وحينًا آخر في دار الندوة، كثير من السادة: عبد المطلب سيد مكة، ويعمر بن نفاية سيد بكر، وخويلد بن نائل سيد هذيل وغيرهم؛ يتدارسون الأمر.

كان بعضهم يرى الخير في الدفاع عن البيت ومنازلة العدو، فما كان للعربي أن يسكت على الضيم، أو يُستذل، لكن أبرهة جاءهم بجيش لا طاقة لهم به ..

ورأى آخرون أن يقدموا لأبرهة من المال والهدايا ما يعوضه عما رزئ به في كنيسته، لينصرف عن بيت آلهتهم.



شكل (٧)

جيش أبرهة من اليمن إلى مكة

فبينما الرجال كذلك .. يتدارسون الأمر، ويزينونه بموازين مختلفة .. أقبل عليهم رجل .. قال إنه حناطة الحميري رسول أبرهة إلى سيد مكة، قال حناطة لعبد المطلب:

- يا سيد مكة .. بعثني مولاي أبرهة .. لأنبئك أنه لم يأت لحربكم، وإنما جاء ليهدم الكعبة،.. فإن لم تعرضوا دونه بحرب، فقد عصمتم دماءكم وأموالكم.

قال عبد المطلب:

- أما وسيدك قد كفانا الحرب، فهذا الذي نريده.

قال حناطة.

- فخلوا بينه وبين الكعبة.

واختلف القوم.. أي الطرق يسلكون .. أن يخلوا بين الكعبة وعدوهم .. أم يدافعون عنها.. قال عبد المطلب:

- والله ما نبغى حربًا، وهذا بيت الله .. بيت خليله إبراهيم، وإنا أهل بيت يأمن فيه الناس من كل خوف، ويُطعمون من جوع، فما نحب أن تراق فيه الدماء.

قال حناطة لعبد المطلب:

- فلعلك يا سيد مكة تأتي معي إلى سيدي أبرهة، فتؤكد له حبك للسلام.

اتخذ عبد المطلب وبعض سادة مكة طريقهم إلى خيمة أبرهة ..

حيث كان يعسكر بجنده على غير بعيد من مكة.

كان أبرهة .. حين اقترب من مكة قد أرسل رجلاً يقال له: الأسود بن مقصود في رهط من جنده، فعاثوا في الأرض الفساد، وهاجموا قوافل التجارة في طريقها، واستولوا على كثير من الإبل والشياه، وأسروا كثيرًا من الرجال والنساء، وكان فيما اغتصبوه مائتا بعير لعبد المطلب.

ودخل عبد المطلب ورجاله على أبرهة الذي نهض للقائهم .. لقد أدرك أنهم جاءوا راغبين في السلام .. قال أبرهة لعبد المطلب:

- يا سيد مكة .. إني لم آت لحربكم، وإنما جئت لأهدم الكعبة .. بيت آلهتكم، فإن لم تحولوا بيني وبين ما أردت، فلا حاجة بي لقتالكم.

قال عبد المطلب:

- ونحن لا نملك أن نعرض لك، فإنا لا نريد حربًا، وهذا بيت الله نخلي بينك وبينه، فإن شاء حفظه ومنعه منك.

وسكت عبد المطلب قليلاً، وهو يتابع الوجوه حوله .. ثم عاد يقول:

- ولكن جنودك قد اغتصبوا الناس أموالهم وإبلهم وشياههم، وقد أصابوا فيما أصابوه مائتي بعير لي، فمر جنودك أن يعيدوا ما اغتصبوه.

قال أبرهة في غلظة:

- أتترك بيتًا هو بيت آلهتك جئت لأهدمه، وتكلمني في مائتي بعير لك؟!

قال عبد المطلب في ثقة:

- لأني أنا رب الإبل .. أما البيت، فله رب يحميه، ويمنعه منك.

عندما انصرف عبد المطلب ورفاقه .. كانت كلماته تدق سمع أبرهة .. إن للبيت ربًا يحميه .. يمنعه منك .. حتى ليكاد يرجع عن رغبته، ولكن غروره وسراب آماله؛ دفعا به إلى أن يمضي في الطريق نحو الكعبة، وقد امتطى صهوة فيله، يتقدم جنده، ويستحثه شيطانه.

واضطر كثير من أهل مكة أن يغادروا دورهم وشعابهم إلى الجبال وبطون الأودية؛ خوفًا مما قد يصيبهم من شر أبرهة ورجاله .. يدعون رب الكعبة أن يحفظ لهم بيتهم، ويهزم عدوهم، وبقى عبد المطلب وبعض رجال معه في الكعبة .. وقد أمسك بحلقة بابها، وهو يدعو وينشد:

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا ... فامنعهم أن يخربوا قراكا

اقترب أبرهة من الكعبة.. يحاول أن يدخلها .. لكن الفيل توقف عن المسير .. تسمر في مكانه لا يبرحه؛ كأنما شد إلى الأرض بوثاق من حديد!! وحاول أبرهة أن يستنهضه، فما استطاع، ووخزه سائسه حتى أدماه، فلم يتحرك، وكاد أن يفتك به، ودهش رجال أبرهة، وأصابهم الذعر.. قال أحدهم:

- فوجهوه نحو اليمن.

حتى إذا فعلوا .. أدهشهم أن الفيل ينهض مسرعًا، كأنه كان

على موعد مع خليلته، ثم وجهوه نحو الشمال، ثم نحو المشرق، فمضى مسرعًا .. حتى إذا أعادوا وجهته نحو الكعبة، برك في مكانه بين دهشة الرجال وخوفهم!!.

وبينما كان رجال أبرهة يتابعون الموقف .. أقبلت سحابة سوداء قاتمة .. حسبوها ستسقط عليهم مطرًا .. لكن السماء أظلمت، حتى ظنوا أنه الليل قد أقبل على غير موعد، ونظروا، فإذا جماعات من طيور تُسقط عليهم وابلاً من الحجارة .. كأنها قُدَّت من جهنم، يسقط الحجر على رأس الرجل، يخترق جسده من رأسه حتى أخمص قدميه، فيهوى جثة بلا حراك .. كانت الأحجار تسقط سريعة متلاحقة، ومعها تتساقط أجساد الجنود وسيوفهم ورماحهم وفؤوسهم .. تلك التي جاءوا بها ليهدموا الكعبة . كانوا يتساقطون صرعي كأنهم أعجاز نخل خاوية، وحاول بعضهم الهرب، فما استطاعوا مضيًا ولا يرجعون، كأنما سُدت أمامهم السبل.. وأصابهم الظمأ من شدة الحر والخوف والألم، فما وجدوا غير الجثث والأشلاء يلعقون دماءها!! ليزدادوا ظمأ على ظمأ، وما يريحهم غير الموت!!

وفر أبرهة وبعض رجاله .. بعد أن رأى ما حاق بجنوده.. أصابه حجر كاد يقضي على حياته، لكن مشيئة الله أبقت له في الحياة أنفاسًا يعيشها .. تؤلمه جراحه، وليتذكر ما وقع له، ليكون عظة لمن شاء الشر لبيت الله .. وليبقى ذكره في صفحات التاريخ .. تعاد قراءتها.

(١٥)

فرح أهل مكة بهزيمة أبرهة ورجاله، وعلت البسمة وجوههم، وهم يعودون إلى ديارهم وشعابهم، وارتفعت هاماتهم بين القبائل الأخرى، وأقبل كثير منهم إلى الكعبة.. يطوفون حولها .. شاكرين .. داعين، أو ينحرون الذبائح .. قربانًا لآلهتهم، وسعد عبد المطلب لأن الله حفظ بيته، وأعاد للناس ما اغتصبه أبرهة ورجاله، ومضت الأيام بمكة على خير ما يرتجيه أهلها. وقد بسط السلام جناحيه، وعم الرخاء، وزاد عدد الحجيج.

حتى كان ذات يوم ..

كانت نسائم الفجر تهب على مكة، حين نهض عبد المطلب، واتخذ طريقه نحو الكعبة.. يهيئ لزوار البيت سقايتهم، فشعر في هذه النسائم ريحًا طيبة .. حتى إذا وصل المسجد طاف بالبيت، فأحس بنور تشرق به نفسه، ثم جلس في حجر إسماعيل حيث اعتاد أن يفعل .. يتابع الطوافين. ووفدت إلى ذهن الشيخ تلك الذكريات التي كانت كثيرًا ما تطفو على ذهنه، وهو يستعيد تلك الأحداث التي عاشها مع أهل مكة، وعادت إلى ذهنه صورة ذلك الحلم الذي رآه من قبل ...

كان عبد المطلب قد رأى ذات ليلة، كأنه في إحدى الحدائق التي امتلأت بالأشجار، وإذا بإحدى هذه الأشجار تعلو وترتفع في السماء، تتطاول بأغصانها وفروعها، والناس يلتفون حولها :.

يستظلون بوارف ظلالها.. يقتطفون ثمارها .. لكن بعضًا من القوم أخذوا يتعلقون بفروعها .. يعبثون بثمارها!!.. يحاولون انتزاع أغصانها، وإسقاط أوراقها، وعمد بعضهم إلى جذعها، يحاولون أن يجتثوه، فما استطاع هؤلاء أو أولئك إلى ذلك سبيلاً.

إن عبد المطلب لا ينسى هذا الحلم الذي رآه عدة مرات، ثم هو لا ينسى أيضًا ذلك الحبر اليهودي الذي لقيه ذات يوم في اليمن، فما كاد يرى عبد المطلب، حتى قال له:

- يا سيد مكة: إن في إحدى يديك ملكًا، وفي الأخرى نبوة!!

ترى ماذا كان يعني ذلك الحبر بكلماته؟!

ومضى عبد المطلب في ذكرياته، وهو ما يزال في حجر إسماعيل، فعادت إليه صورة ولده عبد الله الذي افتداه ذات يوم بمائة بعير .. ولكنه ارتحل في تجارة، ومات هناك في يثرب .. بعد أن خلَّف وراءه زوجة تحمل بين جنبيها جنينًا يوشك أن يخرجَ إلى الوجود.

فبينما هو كذلك .. يقلب صفحات ذكرياته مضت، ويأمل في صفحات جديدة .. أقبلت عليه (بركة) جارية آمنة زوج ولده، والفرح يسابق خطواتها، والسعادة تغمرها .. حتى لتكاد الفرحة تمحو سواد وجهها .. قالت بركة:

- يا سيدي: لقد ولد اليوم لسيدتي آمنة.. مولود يشرق وجهه نورًا..

التمعت دموع الفرح في عيني الشيخ، فاتخذ طريقه إلى بيت آمنة .. حتى إذا دخل عليها .. أقبلت عليه، وقد فاض وجهها بشرًا، وازداد إشراقًا، وهي تقدم وليدها لجده، وتقول:

- سميته محمدًا .. بهذا أمرني الهاتف.

قال عبد المطلب:

- ما أجمله من اسم .. إنه من الحمد، وماذا قال لك الهاتف؟

قالت آمنة، وصور عديدة تتوارد على خاطرها:

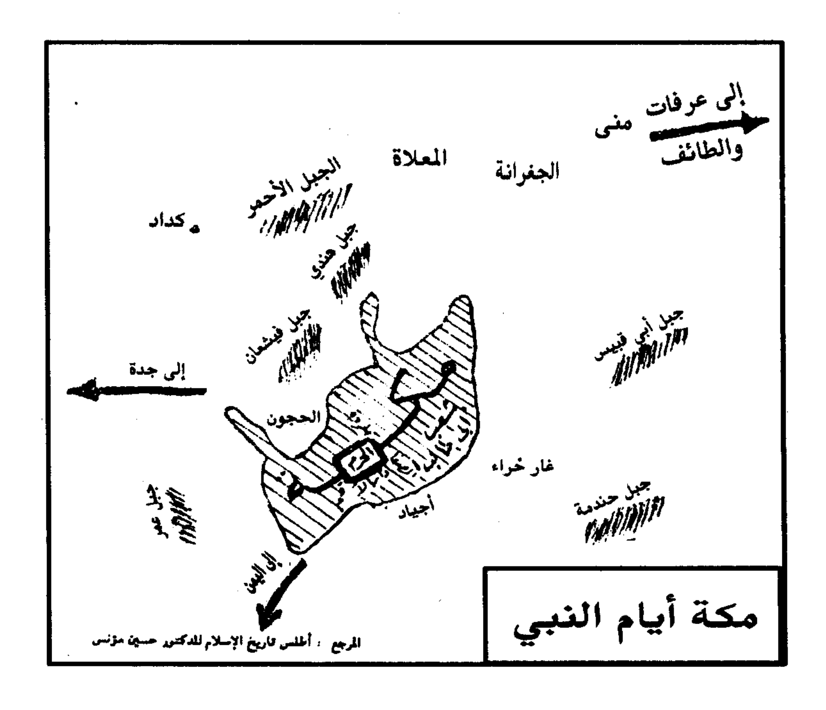
- أخبرني بأنه سيكون سيد هذه الأمة.

أعادت هذه الكلمات إلى ذهن عبد المطلب ما أخبره به الحبر اليهودي. فأقبل على حفيده.. ثم أخذه واتجه به إلى الكعبة، فطاف بالبيت شكرًا، واعترافًا بنعمة ربه، وهو ينشد:

الحمد لله الذي أعطاني	هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان	أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى يكون بلغة الفتيان	حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من كل ذي شان	من حاسد مضطرب العنان

وسعدت آمنة بابنها .. ذكري لأبيه، وسعد عبد المطلب بحفيده .. ذكري لولده، وبين هاتين السعادتين .. عاش محمد بضع سنين من حياته في رعاية مرضعته حليمة السعدية، في أرض بني سعد، وبضع

سنوات في رعاية أمه وجده. حتى إذا كان محمد في السادسة من عمره لحقت أمه بأبيه. حيث دفنت في الأبواء، فلما بلغ الثامنة من عمره مات جده عبد المطلب، ففقدت مكة رجلاً من خيرة رجالاتها.. لحق بأجداده: إبراهيم وإسماعيل وقصى!!



شكل (٨)

مكة أيام النبي

(١٦)

كان المجتمع المكي – شأنه في ذلك شأن باقي القبائل العربية – مفكك الروابط .. كثير الصراعات بين القبائل وداخل القبيلة الواحدة .. تنخر في بنائه الاجتماعي عناصر الفساد كالأخذ بالثأر ووأد البنات، والحرب لأتفه الأسباب .. مما أضعف النسيج الاجتماعي.

وزادت موجات الصراع حدة بين القبائل .. ظهر ذلك واضحًا في حرب الفجار[١] التي وقعت بعد وفاة عبد المطلب ببضع سنين..

فقد عرض البراض بين قيس الكناني من قريش على النعمان ابن المنذر أن يقود له قافلة تجارة في حماية قبيلته. نفس العرض عرضه عروة الرجال من قبيلة هوازن .. وافق النعمان على عرض عروة ورفض عرض البراض، فحقد البراض على عروة وقتله. كان ذلك في الأشهر الحرم، واجتمع رجال هوازن، لينتقموا لواحد من قبيلتهم، ولحقوا بقريش عند الكعبة، وقامت معركة بين الطرفين.. تبادلوا فيها الهزيمة والنصر. واستمرت الحرب أربع سنوات .. حتى تم الصلح بين المتخاصمين على أن تدفع قريش لهوازن دية عشرين قتيلاً.

---

(١) سميت بهذا الاسم لأنها وقعت في الأشهر الحرم، وقد اشترك فيها محمد بن عبد الله حيث كان ينّبل على عمه أبي طالب (أي يعيد إليه النبال ليضرب بها).

لم يمض غير قليل بعد انتهاء حرب الفجار .. حتى سمع الناس في مكة ذات يوم .. صرخة تأتيهم من أعلى جبل قبيس .. يقول صاحبها:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

كان الضحى قد ارتفع في ذلك اليوم .. حين جلس الزبير بن عبد المطلب مع بعض رجال مكة، فإذا هذا النداء يأتيهم من أعلى الجبل، فأدهشهم ما سمعوا. وهب الزبير يستطلع الأمر .. ترى ما أمر هذا الرجل الذى يعلن مظلمته في البيت الحرام حيث يُستعاد الحق لصاحبه .. لقد انتهت حرب الفجار، فلماذا يجأر هذا الرجل بشكواه؟!

وأقبل القوم على الرجل الذي يعلن صرخته، فعرفوا قصته .. إنه رجل من قبيلة زبيد باليمن. قدم إلى مكة في تجارة يبيعها، ليكتسب ربحًا، فاشتراها العاص بن وائل .. لكن العاص ماطل في دفع الثمن، فلجأ الزبيدي إلى رجال من قبائل عبد الدار ومخزوم وجمح، ليعيدوا إليه حقه، و لكنهم نهروه، ورفضوا مظلمته.. من أجل ذلك لم يجد الرجل بدًا إلا أن يعلن صرخته على الناس من فوق الجبل على مقربة من بيت الله الحرام.

ولأن الزبيدي كان على حق، لذلك أخذ الزبير بن عبد المطلب على عاتقه إعادة الحق إليه، واجتمعت قبائل قريش وزهرة وتيم في دار ابن جدعان. قال قائلون:

- نحن أحفاد إسماعيل وإبراهيم.

- وما نرضى لأحد أن يظلمنا.

- ولا أن يظلم أحد بين ظهرانينا.

- وبيت الله .. لا نريده ساحة ظلم ولا شجار.

- وما نرضى أن تضيع حقوق القبائل الأخرى.

كان ذلك في شهر ذي القعدة أحد الأشهر الحرم، فتعاقد الجميع وتعاهدوا يدًا واحدة أن يكونوا مع المظلوم على من ظلمه .. حتى يعود الحق لصاحبه، وكان حلف الفضول، ثم مضى القوم إلى العاص بن وائل، وانتزعوا منه سلعة الزبيدي وأعطوها له.

وقال الزبير:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا   ألا يقيم ببطن مكة ظالم

* * *

(١٧)

أرخى الليل أستاره الحالكة على مكة وما حولها، وما عاد في صفحة السماء إلا تلك النجوم المتباعدة التي بدت كبصيص نيران متقدة، وعصفت الريح، وزأر الرعد، فما هي إلا لحظات .. حتى سقط المطر غزيرًا على مكة .. أكثر غزارة على ما حولها من جبال، وانحدرت مياهه عن طريق المسيلات ما بين الجبال إلى الكعبة .. وما يملك الناس، والظلام حولهم، والخوف يحيط بهم .. إلا أن يلوذوا بفراشهم!!

فما كاد يولد فجر يوم جديد .. يمنح العالم بعضًا من ضيائه .. حتى هب الناس .. ينفضون عنهم مخاوفهم، ليتجهوا إلى الكعبة .. فهالهم ما رأوا .. لقد تشققت جدرانها، وتسللت المياه إلى داخلها وما حولها، وغمرتها لمسافة عالية .. وامتلأ صحن المسجد بالمياه التي انسابت برمال من الجبال، وفزع الناس مما رأوا، فقد استباحت الأمطار حرمة بيت آلهتهم.. ذلك الذي عجز عنه أبرهة وغيره من صناديد الأعداء!!

واختلف القوم فيما بينهم .. ماذا يفعلون، وقد بدا أنهم لا يستطيعون أن يمارسوا طقوسهم للآلهة التي غمرتها المياه، أو ارتفعت عن هياكلها، فبدت كما لو كانت تسبح في بحر، وهوى بعض منها!!

لقد فكروا من قبل في إعادة بناء الكعبة، ولكنهم خشوا أن

تصيبهم الآلهة بسوء، فقد نسج كثير من الناس حول الكعبة وآلهتها قصصًا وأساطير شتى، تصرفهم عن أن يغيِّروا شيئًا من معالمها، خوفًا من سوء يصيبهم.

وعلت أصوات الرجال بين راغبين في إعادة بناء الكعبة .. يتزعمهم الوليد بن المغيرة .. أو رافضين .. يتزعمهم أبو وهب بن عمرو .. وراح كل من الفريقين يعلن عن رأيه .. فأما هؤلاء الذين يرغبون في إعادة بناء الكعبة، فكانوا يرون أن فيما يفعلون الخير للبيت والآلهة ولأهل مكة والحجيج، وما يخشون سوءًا.. وأما هؤلاء الذين يرفضون، فذلك لأنهم يخشون أن يحل عليهم غضب الآلهة، لما يحدثونه في الكعبة من تغيير في بناء إبراهيم وإسماعيل، ثم كانت هناك تلك الحية التي يرهبونها .. والقائمة في الكعبة كأنها تحرسها .. رأسها كرأس جدى، وبطنها أبيض، وظهرها أسود .. تخرج كل يوم، فتشرف برأسها على جدار الكعبة، فإذا دنا منها أحد .. رفعت رأسها، وفتحت فمها، وتأهبت للوثوب عليه، وتجهمت حتى ليكاد يسمع صوت احتكاك جلدها! فكيف يستطيع أحد أن يقترب من جدار الكعبة، ليهدمها؟!

وبين الحيرة والخوف والأمل والشك .. عاش أهل مكة لا يدرون ماذا يفعلون.

حتى كان ذات يوم..

أشرفت الحية على جدار الكعبة كعادتها، فإذا نسر ضخم يهوى

عليها.. تصارعه فيصرعها، ثم يخطفها بين مخالبه ويعلو في السماء.

وما تمضي بضعة أيام .. حتى أتى إلى القوم من يخبرهم بأن سفينة رومانية كانت في طريقها في البحر .. تحمل من مواد البناء الرخام والحديد والأخشاب، فهبت عليها ريح .. جنحت بها إلى جدة ولكنها تحطمت، وما بقى منها إلا ما كانت تحمله من أخشاب، فمضى الوليد بن المغيرة وبعض من رجاله، فاشتروا هذه الأخشاب، وجاءوا بها من جدة إلى مكة على عجل.

وكان في مكة رجل قبطي من مصر لديه خبرة في النجارة والبناء .. إذن فقد توفرت كل مقومات البناء .. الحية اختطفت .. الأخشاب متوافرة، بالإضافة إلى العامل الماهر، وما كان عليهم إلا أن يبدأوا هدم الكعبة .. لكن من ذا الذي يستطيع أن يبدأ، وما يزال في بعض منهم خوف؟

وارتفع صوت الوليد بن المغيرة.. يعلن في إصرار:

- أنا أكفيكم.

- ....؟!

وصعد إلى أعلى الجدار اليماني، ودعا الآلهة، ثم ضرب بفأسه، فهوى جزء من الجدار .. بينما عاد الوليد يقول:

- فإن أصابني شر .. كنت فداء لكم، وإلا فهو الخير لي ولكم وللآلهة.

وبات الناس ليلتهم، وقد غشيهم الخوف مما قد يصيبهم لما فعله الوليد، والأمل في أن تتقبل الآلهة ما قد عزموا عليه .. من أجل ذلك .. أسهدهم الفكر، خاصم الكرى أجفانهم، فما أشرقت شمس الصباح بنورها .. حتى كان الوليد بن المغيرة في صحن الكعبة .. يعلو الفرح وجهه، وأقبل الناس عليه يهنئونه، ويهنئ بعضهم بعضًا، والوليد يقول:

- ورب الكعبة .. إنها لمشيئة الآلهة .. أن نهدم الكعبة لنعيد بناءها.

كان على الرجال أن يقتسموا العمل فيما بينهم .. يوزعوه على القبائل، فلجأوا إلى هبل كبير الآلهة، وضرب صاحب القداح قداحه، فخرج لكل قبيلة أو مجموعة قبائل ما تقوم به:

كان جدار الكعبة الذي به الباب لبني عبد مناف وبنى زهرة .. وما بين الركن الأسود واليماني لبني مخزوم وقريش، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وبني عامر وبني لؤى، وكان شق الحجر لبني عبد الدار، وبني أسد وبني عدى.

وبدأت القبائل عملها في هدم الكعبة .. بعد أن أفرغوا ما بها من الآلهة والهدايا، ورفعوا الحجر الأسود عن مكانه.

كم كانوا سعداء بما يفعلون .. حتى لقد شغلتهم السعادة عن الخوف والتعب .. فبينما كان أحد الرجال يضرب حجرًا ارتد عنه

بمعوله، وقد مادت الأرض تحت قدميه، وأفزعه ذلك الضوء الذي برق أمام عينيه حتى كاد أن يخطف بصره!! فتوقف عن العمل في صيحة فزع، وأقبل عليه الرجال، تسبقهم دهشتهم، ليستطلعوا أمر صاحبهم، فإذا أحجار خضراء صلبة على شكل أسنمة الجمال .. انظر الشكل (٩) ركبت متجاورة.. متلاصقة .. رُصت فوق بعضها متداخلة بحيث يصعب فصل أحدها عن الآخر !! .. قال أحد كبار القوم:

- دعوها يا قوم .. فهي قواعد البيت الذي رفع إبراهيم بناءه.



شكل (٩)

رسم لأساس الكعبة المشرفة وهي حجارة كأسنمة الإبل.

وأعادت كلمات الشيخ إلى الناس ذكريات إبـراهيم وإسماعيـل .. حتى إذا انتهوا من الهدم .. كان عليهم أن يبدأوا البنـاء .. وعلـى كل قبيلة أو قبائل أن تعيد بناء ما هدمته.

وبدأت السواعد الفتية من الشباب .. يشاركهم الشيوخ بـالرأي والمشورة .. وقد علت وجوهم ابتسامات الرضـا وفرحـة الأمـل .. كانوا يغنون ، ويهتفون بدعاء إبراهيم:

- ربنا تقبل منا .. إنك أنت السميع العليم.

ورأى بعض الرجال من ذوى الرأي أن يرتفعـوا ببـاب الكعبـة عن الأرض، حفاظًا عليها من السـيول، ففعلـوا .. حتـى إذا وصـل البناء إلى موضع الحجر الأسود كان عليهم أن يضعوه في مكانه ..

ترى من يكون له هذا الفضل دون الآخرين؟!

تنازع الناس واختلفوا .. كل قبيلة تريد أن تحظى بهـذه البركـة، وعلت الأصوات، واختلفت الآراء، وتصايح الرجال .. حتى كادوا يتوقفون عن العمل، وتحول الخلاف إلى نزاع وشقاق وشجار.. كـاد يؤدي بهم إلى القتال .. وتحزبت كل قبيلة ليكون لها النصر .. وعلت أصوات رجال قبيلتي بني عبد الدار وبني عدى .. يتداعى بعضهم إلى بعض، وهم يقولون:

- نحن أولى بهذا الشرف، لأننا أصحاب الجدار الـذي بـه ركـن الحجر الأسود.

ثم قاموا إلى بعضهم البعض، واحضروا جفنة ملأوها بالدم، وغمسوا فيها أيديهم، وهم يقسمون ألا يكون لغيرهم هذا الحق، وأن يدافعوا عن حقهم مهما كلفهم ذلك.

ورفضت قبائل قريش وزهرة ومخزوم وغيرهم أن يكون لغيرهم هذا الشرف، واحتدم الصدام، وكادت تشتعل الحرب بين المتنازعين..

وبين اليأس والأمل والخوف .. صاح أحد الرجال:

- يا قوم .. لا تختلفوا. وليكن أول من يدخل هذا الباب (وأشار إلى الصفا) هو الذي يقضي بينكم.

كان صاحب الصوت هو أبو أمية بن المغيرة المخزومي، وكان أكبر الرجال سنًا، وساد السكون والهدوء، وهم يتطلعون إلى باب الصفا، لينظروا من يكون القادم .. فإذا هو محمد بن عبد الله، فهتف بعضهم:

- إنه الأمين.

كان الناس في مكة يعرفون عن محمد بن عبد الله الأمانة والصدق وحسن الرأي، ولذلك سعدوا أن يكون حكمًا بينهم.

طلب محمد بن عبد الله من الرجال أن يأتوا له بثوب.. حتى إذا فعلوا .. نشره بين أيديهم، وقال:

- فليأخذ أحد رجال كل قبيلة بطرف من الثوب.

واختارت كل قبيلة من بينها من ينوب عنها .. فكان هؤلاء

الرجال هم: عتبة بن ربيعة وأبو زمعة بن الأسود والعاص بن وائل، وأبو حذيفة بن المغيرة .. كل منهم أمسك بطرف من الثوب، وقام محمد بن عبد الله فأخذ الحجر الأسود، ووضعه في وسط الثوب، ومضى حاملو الثوب، ومعهم محمد حتى إذا حاذوا المكان الذي يوضع فيه الحجر الأسود .. أخذه محمد بيده، ووضعه في مكانه.

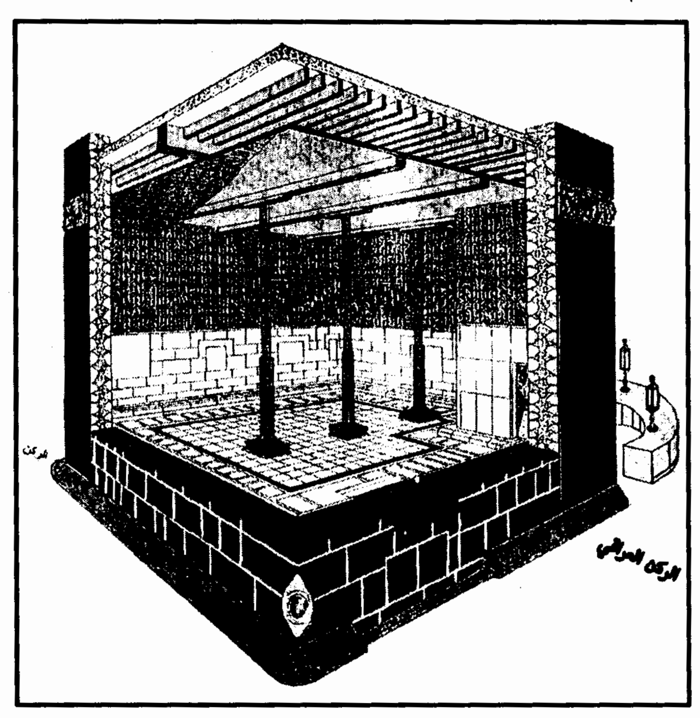
صورة مشرفة للوحدة بين القبائل العربية التي عرف عنها الشقاق والخلاف، وكان الفضل في ذلك يرجع إلى محمد بن عبد الله، وحمد الجميع لمحمد حسن الرأي لأنه باعد بينهم وبين الخلاف .. حتى قال أحد قائليهم:

- واعجبا لقوم هم أهل شرف ورياسة، وعقول وسن وأموال، وشيوخ وكهول .. عمدوا إلى أصغرهم سنًا، وأقلهم مالاً، فجعلوه عليهم رئيسًا وحاكمًا!.. أما واللات والعزى ليفوقنهم سيفًا، وليقسمن بينهم حظوظًا وحدودًا، وليكون له بعد هذا اليوم شأن، ونبأ عظيم.

وعاد القوم إلى عملهم، وهم أكثر ما يكونون سعادة وصفاء، وارتفعوا بالبناء، ورفعوا باب الكعبة عما كان عليه، وكانوا يبنون (مدماك) من خشب وآخر من الحجر .. حتى بلغوا إلى أعلى، فجعلوا للبناء سقفًا[1] محمولاً على ستة قوائم؛ انظر شكل (١٠)، وبلغ

(١) سقف الكعبة: عندما بنى إبراهيم الكعبة لم يجعل لها سقفًا فلما أعاد القرشيون بناءها جعلوا لها سقفا ليحميها من الأمطار . جعل السعوديون للكعبة سقفين. وسطح السقف مغطي بالرخام مثبت فيه ميزاب.

الارتفاع إلى ثمانية عشر ذراعًا، وجعلوا للسقف ميزابًا يلقى بمياه الأمطار، ثم أعادوا إلى الكعبة ما كان بداخلها، وكسوها بحبرات يمانية.



شكل (١٠)

منظر من داخل الكعبة المشرفة

وعادت الحياة تسير في مكة والكعبة كما كانت عليه .. حتى كان مشرق عهد جديد..

(١٨)

غسل ضوء النهار حول مكة ما بقي من فلـول الليـل، فأشـرق الكون بنور من الله .. كانت تباشير الصبح تنبئ بضحى يوم جميل .. ولأمر شاءه الله .. وفـد إلى مكـة كثير مـن القـوم .. بعضـهم جـاء للطـواف، وآخـرون جـاءوا يلتمسـون مـن الآلهـة الخـير والبركـة والسلامة.. وغير هـؤلاء وهـؤلاء .. جـاءوا إلى الكعبـة .. يهـدأون بجوارها .. لعلهم يجدون فيها مرفأً يلوذون به من لهيب الصـحراء .. حتى ازدحم صحن المسجد .. فبينما الناس منصـرفون .. كـل فيمـا قدم من أجله .. جاءهم صوت من أعلى ربوة الصفا ينادي:

- **يا صباحاه .. يا معشر قريش .. يا بني هاشم .. يا بني مخزوم...**

كان الصوت وديعًا صافيًا.. محببًا إلى النفس .. فيه دعوة صـادقة بالحب لمن يسمعه؛ فسرعان ما استجاب الناس لصاحبه، وقد عرفوه .. إنه صوت محمد بن عبـد الله، فأسـرعوا إليـه.. ينـاجي أو ينـادي بعضهم بعضًا، وهم يقولون:

- محمد على الصفا .. ترى ما أمره؟!

لم يكن الناس يعرفون عن محمد بن عبـد الله ... إلا أنـه حفيـد عبد المطلب الذي كان سيد مكـة، وأنـه خـير رجالهـا.. عرفـوا عنـه الصدق والأمانة والحكمة .. ولم ينسوا ما كان منه ذات يوم قريب ..

حين احتكم إليه القوم فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه.. فكان محمد خير حكم بينهم .. استطاع بحكمته أن ينهى ما كان بين القوم من شجار كاد يؤدي بحرب طاحنة .. هذا هو محمد كما عرفوه .. تُرى لماذا يدعوهم اليوم من فوق الصفا؟! وما يملكون إلا أن يتجهوا إليه .. حتى إذا كثر عددهم .. جاءهم صوته ينادي:

- **يا معشر قريش .. أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الوادي .. أكنتم مصدقي؟**

قال الجميع بلسان واحد، وفي ثقة وبلا تردد:

- نعم يا محمد .. فما جربنا عليك كذبًا قط.

فعاد محمد يقول:

- **يا بني عبد المطلب .. يا بني عبد مناف .. يا بني زهرة .. يا بني تميم .. يا بني مخزوم .. يا بني أسد .. إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي؟**

- ....؟!

- **إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .. أنقذوا أنفسكم من النار، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيبًا. إلا أن تقولوا لا إله إلا الله.**

كلمات نصح صافية. قالها محمد لقومه يدعوهم إلى خير يصيبهم في دنياهم، وينفعهم في آخرتهم، ولكنهم اختلفوا .. فمنهم من أخذ يتدبر كلماته (لا إله إلا الله) .. ومنهم من ران على قلوبهم الحقد، وأبعدهم عن الصواب!! فبينما الناس في تفكيرهم.. يحيرهم الموقف .. علا صوت أحدهم في حدة واستهزاء .. يقول:

- تبًّا لك يا محمد .. ألهذا جمعتنا؟

والتفت الناس إلى مصدر هذا الصوت، فإذا هو لرجل ضخم بدين .. أوسع الحقد جسده، وطمس على بصيرته .. إنه أبو لهب بن عبد المطلب .. عم محمد !!

كم دهش الناس لما يقوله أبو لهب!!.. لكنهم أدركوا حقيقة ما تعتمل به نفسه من كراهية لابن أخيه .. وانسحب أبو لهب .. يتبعه بعض صناديد قريش: أبو سفيان بن حرب، وأبو الحكم بن هشام[1]، والوليد بن المغيرة المخزومي، وغيرهم .. يدفعهم حقدهم .. يفزعهم أن يدعو محمد إلى دين غير دينهم.

منذ ذلك اليوم .. بدأ في مكة والكعبة عهد جديد..

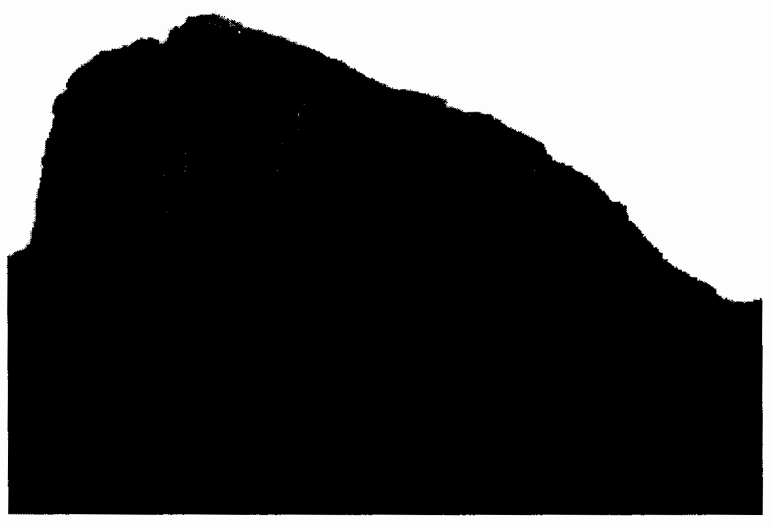
كان محمد بن عبد الله قد اعتاد أن يتحنث[2] شهرًا كل عام في

---

(١) هو أبو جهل.

(٢) التحنث: التَّعبُّد على مبادئ دين إبراهيم عليه السلام.

غار حراء [1].. يأخذ زاده، ويعتزل الناس وأهله. يفكر في خالق السموات والأرض، فبينما هو كذلك.. جاءه جبريل بأمر من ربه .. يقرئه:



شكل (١١)

جبل النور الذي فيه نزل الوحي على النبي

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥].

وحينما عاد محمد إلى داره .. أخبر زوجته خديجة بنت خويلد بما

---

(١) غار حراء: يقع في جبل شمال شرقي المسجد الحرام في قمته جبل النور. ارتفاعه عن سطح البحر ٦٢٠ مترا. كان النبي يتعبد في غاره قبيل البعثة وهذا الغار طوله ٣ أمتار وعرضه حوالي ١٣٠ سم وارتفاعه ٢ متر انظر شكل (١١).

كان من أمره، وما حدث، وما سمع، و ما قرأ.. فطمأنته .. وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر، وقرأ التوراة والإنجيل، وعرف منهما بقرب ظهور نبي جديد في أرض الحجاز، فبشر خديجة بأن محمدًا هو نبي هذه الأمة .. رسول الله إلى قومه بالهداية، وتتابع الوحي على محمد يأمره أن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة الأصنام. فبدأ محمد بنشر دعوته سرًا بين أهله وعشيرته وصحبه ثلاث سنوات .. آمن به زوجه خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب ومولاه زيد بن حارثة، وصاحبه أبو بكر بن قحافة وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح، وكثير ممن وجدوا في الإسلام نورًا أضاء قلوبهم بالهداية والإيمان...

حتى جاء إلى محمد جبريل بوحي من ربه يأمره أن يدعو الناس إلى الإسلام جهرًا .. في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

من أجل هذا، كان على محمد أن ينشر دعوته بين الناس، فجاء إلى الكعبة، وصعد الصفا .. يدعو الناس إلى الحق والإيمان وعبادة الله وحده، والتقرب إليه بالعمل الصالح، والبعد عن المعاصي.

وزاد الصراع بين من آمنوا بمحمد، ومن أصروا على دين آبائهم، تكبرًا وعنادًا .. أنكروا الحق كمن ينكر الشمس في وضح النهار، وحمل لواء المعارضة أبو لهب (عبد العزى) وزوجته أم جميل

التي لم تكف عن إيذاء محمد. حتى لقد فرقت بين ولديها معتب وعتبة وزوجتيهما أم كلثوم ورقية ابنتي محمد، وكثيرًا ما حاولت قتل الرسول، ودفعت ببعض الشعراء لهجائه، فأنزل الله فيها قوله تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١- ٥].

وشهدت مكة ذات يوم ذلك الحشد من الرجال الذين أقبلوا على محمد .. يحاورونه، ليصرفوه عن دينه .. قال قائلوهم:

- يا محمد: سل لنا ربك الذي بعثك .. فليسيِّر عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا.

- وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق ومصر.

- وليبعث فينا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصى ابن كلاب، فإنه كان شيخًا صادقًا، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟.

- فإن فعلت صدقناك، وآمنا بك رسولاً، كما تقول.

وقال آخرون:

- سل ربك أن يبعث لنا ملكًا، نصدقك فيما تقول.

- ويجعل لنا جنانًا وكنوزًا من ذهب وفضة.

- أو يسقط علينا كسفًا من السماء.

وقال قوم من بني مليح:

- يا محمد: نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله، فلن نؤمن لك .. حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً!!

- أو تتخذ سلمًا إلى السماء، ثم ترقى، ونحن ننظر إليك، حتى تأتي معك بنسخة منشورة، وأربعة ملائكة، يشهدون أنك كما تقول.

لم يكن هذا كله إلا صورة للمكابرة والعناد، ولأن محمدًا بشر .. لا يملك أن يحقق لهم ما يطلبون، وما يستطيع إلا أن يقول لهم:

- ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وغدت مكة والكعبة ودار الندوة مسرحًا للحوارات بين محمد ﷺ، وقريش، وكثيرًا ما كانت هذه الحوارات تشتعل بين الطرفين.. ذلك لأن القرشيين قد عاشوا فترة طويلة وسط أغوار كثيفة من الضلال وعبادة الأصنام .. غشيهم الحقد، وعميت بصائرهم.. إلا قليلاً منهم.

التف القوم حول محمد ذات يوم .. يناهضونه ويجادلونه .. قال أحدهم:

- يا محمد .. أخبرنا ما أمر فتية آمنوا بربهم في الدهر الأول.

وقال الثاني:

- وما نبأ رجل طواف .. طاف مشارق الأرض ومغاربها.

وقال ثالثهم:

- وما هي الروح؟

ولأن محمدًا لا ينطق عن الهوى .. إن هو إلا وحي يوحى، لذلك أمهلهم ، حتى يأتيه وحي من السماء بإجابات لأسئلتهم.. وجاءه جبريل يقرئه من ربه السلام[1].

واشتد الصراع بين محمد وأعداء الإسلام .. حاولوا أن يغروه بالمال والسيادة، لينصرف عن دينه، فما استطاعوا .. لجأوا إلى عمه أبي طالب ليمنع ابن أخيه عن تسفيه آلهتهم .. لكن محمدًا لإيمانه بربه وحقيقة دينه .. قال لعمه:

- والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر .. ما فعلت .. حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

وعرض الكفار على عمه أن يدفعوا إليه عمارة بن الوليد، وكان أنهد فتيان مكة .. يأخذه أبو طالب. ويسلّم إليهم محمدًا ليقتلوه!!.. لكن أبا طالب رفض هذه المقايضة..!!

(١) تراجع الآيات (٩- ٢٦)، (٨٣- ٩٨) من سورة الكهف.

وأمعن كفار مكة في إيذاء محمد ومن آمن معه، وقاسى المسلمون الكثير من صنوف التعذيب .. عُذِّب بلال بن رباح، وعمار بن ياسر وزوجته سمية التي استشهدت من قسوة التعـذيب علـى أيـدي بـني مخزوم. لكن ذلك كله لم يكن ليثني المسلمين عن عقيـدتهم ، وكـانوا يتزايدون يومًا بعد يوم. وسعد المسلمون ذات يوم بإسلام حمـزة بـن عبد المطلب عم الرسول .. ذلك لما عرف عنه من شجاعة وجرأة في الحق، ثم كانت هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة .. وإسلام عمر بن الخطاب الذي عرف بالجرأة وقوة الشكيمة والصلابة في الحق، فكان نصرًا لدين الله، وهزيمة لأعداء الإسلام.

ترى ماذا سيفعل صناديد قريش؟

* * *

(١٩)

وقف زهير بن أمية أمام الكعبة، وقد اشتد به الغضب، وعلت وجهه أمارات الحنق والثورة، وهو يقول:

- يا قوم .. ورب الكعبة . إنه للعار يلتصق بنا!!

كان زهير رجلاً من سادة مكة، عرف بحكمته وشجاعته في الحق، وله رأي مطاع بين قومه، لذلك أقبل عليه كثير من الناس، وكان ما يزال شاخصًا ببصره إلى الكعبة، كأنه يقرأ سطورًا، أو يرى صورًا . يستنطقها، ثم عاد يقول:

- ورب الكعبة .. إنه الظلم!!

وحسب الناس أن (زهير) قد أسئ إليه، أو أنه ظلم في أمر له، وأنه يستنفر القوم ليذودوا عنه، أو ليعيدوا إليه حقًا سلبه خصوم له، فاتجهوا إليه، ليستبينوا حقيقة ما أهمه. بينما عاد زهير يقول:

- يا أهل مكة.. أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو عبد المطلب وعبد مناف هلكي في شعابهم؟! .. حرَّمنا عليهم الطعام، وقاطعناهم.. لا نبيعهم ولا نبتاع منهم!

وسكت زهير قليلاً يستقرئ ما بدا على وجوه القوم مما أثارته كلماته، ثم عاد يقول:

- ورب الكعبة .. لا أقعد، حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

لكن صوتًا من بعيد .. جاءه من آخر الصفوف، يقول له:

- كذبت يا زهير، ورب الكعبة.. لا تشق هذه الصحيفة.

كان الصوت لأبي الحكم بن هشام، زعيم المعارضين لدين محمد الساعين إلى إيذائه. يشاركه أبو لهب والوليد بن المغيرة .. ذلك لأن القرشيين قد أقلقهم تكاثر عدد المسلمين، ولم تفلح محاولاتهم لإقناع محمد بالعدول عن دينه. حتى حينما بعثوا إليه بعتبة بن ربيعة؛ ليعرض عليه المال والجاه والسلطان مقابل أنه ينصرف عن دينه.. عاد عتبة إلى قومه .. يؤكد لهم أن قرآن محمد - وكان قد سمع بعض آيات[1] من الرسول - يعجز عنه البشر لبلاغته وسحر بيانه، وما يدعو إليه من خير وعدل، اعتقدوا أن عتبة قد صبأ عن دين الأجداد؛ لذلك اجتمع كثير ممن ناصبوا محمدًا العداء، يتدارسون الأمر .. يضغط عليهم حقدهم وجهالتهم .. حتى انتهوا إلى مقاطعة بني هاشم وعبد مناف، وحصارهم في شعابهم .. لا يبرحونها وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في الكعبة؛ يحرمون التعامل مع كل من آمن بمحمد، أو حماه أو ناصره، ولكي يتأكدوا من تنفيذ هذا الحصار جعلوا على شعب أبي طالب حراسًا يرصدونه.. يمنعون من يدخل أو يخرج منه، وقاسى المسلمون الكثير من قسوة الجوع، فأكلوا أوراق الشجر الجافة .. حتى كان الاثنان يقتسمان التمرة الواحدة.. وكاد الجوع يفتك بهم؛ حتى كان يسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من

---

(١) الآيات (١- ١٢) من سورة فصلت.

الجوع، لولا ما كان يصل إليهم خلسة، بعيدًا عن أعين الرقباء، فقد كان حكيم بن حزام بن خويلد (ابن أخ لخديجة) يرسل الطعام إلى عمته، وكذا كان يفعل هشام بن عمرو بن ربيعة .. حيث كان يأتي ببعير له .. يحمله بالطعام، ثم يخلع خطامه، ليتركه يدخل شعب أبي طالب، وقد استمر هذا الحصار ثلاث سنوات عاني فيها المسلمون مشقة الجوع والعرى والقطيعة والآلام .. ولكن إيمانهم بالله وبعقيدتهم دفعهم إلى التحمل والصبر .. آملين أن تمد جسور الإصلاح إلى معارضيهم، ليعودوا إلى الصواب.

وإذا كان النضر[1] وأبو سفيان وأبو جهل وغيرهم قد عملوا على استمرار المقاطعة، فإن كثيرًا من رجال مكة كانوا يستشعرون الظلم فيما يقع لبني وطنهم وأهليهم، فلم يكن بنو هاشم وعبد المطلب سواء منهم من آمن بمحمد أو عارضه إلا قومًا من أهل مكة، تربطهم روابط القربى والمصاهرة والمواطنة والصداقة، من أجل هذا .. كان كثير من الرجال يرون في هذه المقاطعة غلوًّا في الإيذاء، وقد دفعهم هذا الإحساس إلى الاعتراض على ما جاء بهذه الصحيفة، وكثيرًا ما أعلنوا سخطهم، و طالبوا بإلغائها، لذلك .. ما كاد زهير يعلن في هذا اليوم عن سخطه واستنكاره لهذه المقاطعة .. حتى وجد من القوم من يعضده ويناصره، وتكاثر عدد الناس في الكعبة، وكان

(١) يقال إن النضر بن الحارث هو الذي كتب الصحيفة، وقد انتقم الله منه، فشُلت أصابعه.

زهير ما يزال يعلن رفضه للصحيفة، و أبو جهل يعارضه.. يكذّب ما يقوله، وارتفع صياح زمعة بن الأسود:

- إنما أنت الكاذب يا أبا جهل، فما رضينا بكتابتها حين كتبت.

وتبعه هشام بن عمرو:

- ونحن نبرأ من هذه الصحيفة، وما كُتب فيها.

وحاول أبو جهل وأبو سفيان وأبو لهب أن يصرفوا القوم .. قائلين:

- هذا أمر قُضى فيه بليل[1].

كادت تقوم الحرب بين الفريقين.. بين مؤيدي الصحيفة ومعارضيها.. لكن بعضًا من هؤلاء وهؤلاء اتخذوا طريقهم إلى أبي طالب، يرجونه أن يصرف ابن أخيه عن دعوته، حتى تكون في هذا فرصة لإنهاء المقاطعة، ورتقًا للصدع بين الطرفين.

كان أبو طالب في الكعبة .. يعيش مع الناس ثورتهم، ويستمع إلى ما يقال.. حتى إذا جاءه أبو جهل، نهض الرجل من مجلسه، وقال:

- يا قوم، أخبرني ابن أخي...

---

(١) أي تم الاتفاق عليها في مكان آخر، وكان هذا قد حدث في خيف بني كنانة بالأبطح بأعلى مكة.

فقاطعه أبو سفيان قائلاً:

- فلعل ابن أخيك قد عاد إلى صوابه، أو عاد صوابه إليه.

ولكن أبا طالب استمر يقول:

- أخبرني ابن أخي أمرًا.. إن صدق فيه - وما أحسبه إلا صادقًا - كان خيرًا لكم أن تكفوا عن معاداته.

قال أبو جهل في رنة استهزاء:

- وماذا بعد؟.

قال أبو طالب:

- أخبرني ابن أخي أن صحيفة المقاطعة التي تعاهدتم عليها أكلتها القرضة!

قال أبو سفيان في حدة:

- كذب ابن أخيك.

وعلا الضجيج في الكعبة، وارتفعت الصيحات مستنكرة أو مؤيدة، وذهب الناس في تفكيرهم مذاهب شتى، وقبل أن يفيقوا من أفكارهم.. قال أبو طالب:

- لا - والثاقب - ما كذبني ابن أخي، فإن شئتم، فأتوا صحيفتكم، فإن كان ما قاله ابن أخي حقيقة، فأفيقوا، فوالله لا

نسلمه أبدًا حتى يموت منا آخرنا، وإن كان الذي قاله باطلاً.. دفعنا إليكم به، فقتلتموه.

أسرع المطعم بن عدى وبعض معه، فنزعوا الصحيفة من مكانها، ونظروا فيها، ولدهشة الجميع .. وجدوها بالية.. ضاعت معالمها .. وطمست حروفها، ولم يبق منها إلا كلمة (باسمك اللهم)!!

وإذا كان كثير من أهل مكة قد سعدوا بما رأوا، وما سمعوا، فقد شعر أبو سفيان وأبو جهل بالحزن، وغمرهما الخزى.. يمضغان حقدهما وفشلهما.

إنه الحق .. شاء الله أن ينصر به نبيه، فما كان للسحب أن تزاحم الشمس في علاها!!

* * *

(٢٠)

أصبحت مكة والكعبة ساحة للصراع بين الحق والباطل .. بين محمد وأتباعه ممن آمنوا بدعوته؛ فسمت أفكارهم، وبين قريش الذين صدوا آذانهم عن سماع كلمة الحق، واستمروا سادرين في ضلالهم.. غلظت أكبادهم، واستغشوا ثيابهم وأصروا، واستكبروا استكبارًا، فلم يبصروا الحقيقة، فتاهوا في برية الشرك!!

وصبر محمد وأصحابه على كثير من الخصومات وألوان التعذيب التي كانوا يلقونها من عناصر الشرك المتربصين بالإسلام.. حتى بلغ الشر مبلغه بعد وفاة السيدة خديجة زوج رسول الله ﷺ، والتي كانت له نعم الزوجة والصاحبة الوفية، ومن قبلها بأيام توفى عمه أبو طالب الذي كان درعًا له، ووقف بجانبه، يذود عنه الأذى، ففاضت أحزان النبي بفقد زوجه وعمه.. حتى سمى هذا العام بعام الأحزان!!

وما كان هذا ليصرف محمدًا عن دعوته .. حتى حينما ذهب إلى الطائف هو ومولاه زيد بن حارثة، فلقيا الكثير من جحود سادة ثقيف الذين أفحشوا له القول، وأغروا به أطفالهم وسفهاءهم؛ فرموه بالحجارة حتى أدموا قدميه!!، وما دفعه كل هذا إلى الكلال أو اليأس .. بل كان يدعو ربه أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله!!

وشاء الله في هذه الفترة أن يخفف عن محمد أحزانه، فاصطفاه بمعجزة لم يجعلها لغيره ممن سبقوه من الرسل والأنبياء.

كان رسول الله ﷺ في بيت أم هاني – هند بنت عمه أبي طالب – حين أسرى به من مكة إلى بيت المقدس، فمر على جبل سيناء، حيث كلم الله نبيه موسى عليه السلام، وعلى بيت لحم حيث كان مهد عيسى عليه السلام، وبلغ بيت المقدس، ثم عرج به إلى السموات العلا، فرأى الكثير من آيات ربه الكبرى، وتخطى في رحلته السماوية حجبًا لم يسمح لغيره أن يتخطاها.

وحينما أخبر محمد أهل مكة بما كان من أمره، وما رأى في مسراه ومعراجه، ووصف لهم ما مر به في الطريق، حتى تلك القافلة التي ضل بعيرها، فدلهم عليها.

ولئن تأكدت قريش من صدق محمد – إلا أنهم كالعهد بهم – كذَّبوه، بينما ازداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم بالله ورسوله، وأمعن المشركون في إيذاء محمد، وتآمروا على قتله، فأمره الله بالهجرة إلى يثرب حيث أخواله من بني النجار، وحيث يقترب من مثوى أبيه وأمه، وحيث وجد من أهلها من بايعوه على النصر والحماية.

كان الليل قد انتصف أو كاد، وأستار الظلام تغطى مكة وما حولها .. حين غادر محمد داره، وترك على بن أبي طالب في فراشه، فوجد كثيرًا من رجال قريش وشبابها من عدة قبائل، وقد تأبطوا سيوفهم.. يترصدون له .. ينتظرون خروجه للصلاة، ليطبقوا عليه، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه بين القبائل، فلا تستطيع بنو هاشم أن تثأر له .. كان هذا الذي خططه لهم إبليس في دار

الندوة![1] لكن الله تعالى، شاء أن يحبط مكرهم، ويفسد كيدهم، فأخبر رسوله بما انتواه به أعداؤه؛ فلما خرج محمد ألقى على الرجال حفنة من تراب، وهو يردد قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٩].

كان عزيزًا على محمد أن يترك أهله ووطنه، وهو يغادر مكة .. كانت خطواته تبتعد، ولكن قلبه معلق بها، وهو يقول:

- والله إنك لأحب بلاد الله إليَّ ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت!.

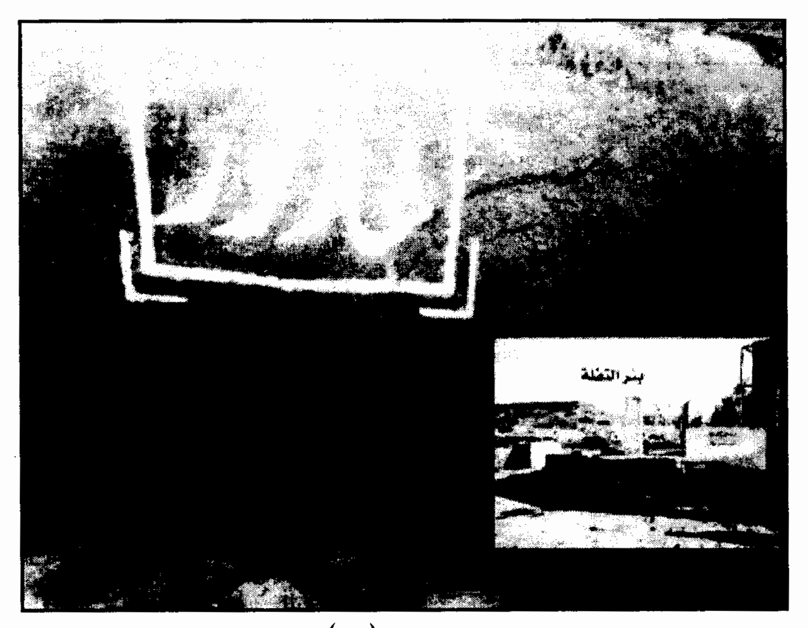
كلمات صادقة يعبر بها محمد عما يكنه في نفسه لمكة، فهي أرض آبائه وأجداده، وفيها كان مهد طفولته، ومرتع صباه، وفيها كانت ذكريات شبابه، ومنزل الوحي عليه، ومنها كان مسراه إلى بيت المقدس، وهي قبل هذا وبعده أرض الله المقدسة التي شرفها بالكعبة.

مضى محمد عليه الصلاة والسلام في طريقه إلى دار صديقه أبي بكر بن قحافة، ليصاحبه في رحلته فاتجها إلى غار ثور[2]

---

(١) بناها قصي بن كلاب، جد النبي حوالي سنة ٤٢٠م.كان القرشيون يجتمعون فيها لدراسة شئونهم والاستعداد لقتال الأعداء.

(٢) غار ثور: يوجد في جبل ثور الذي يقع جنوب مكة على بعد ٤كم من المسجد الحرام، ارتفاعه عن سطح البحر ٧٥٠ مترًا وارتفاعه عن سفح الجبل حوالي ٤٦٠ مترًا، وهو عبارة عن صخرة مجوفة أشبه بسفينة ارتفاعها ١,٢٥ متر وطولها ٣,٥ متر، وعرضها ٣,٥ متر . له فتحتان يستغرق الصعود عليه حوالي ساعة ونصف. انظر الشكل الذي يوضح موقع جبل ثور من أهم معالم مكة الآن انظر شكل (١٢).



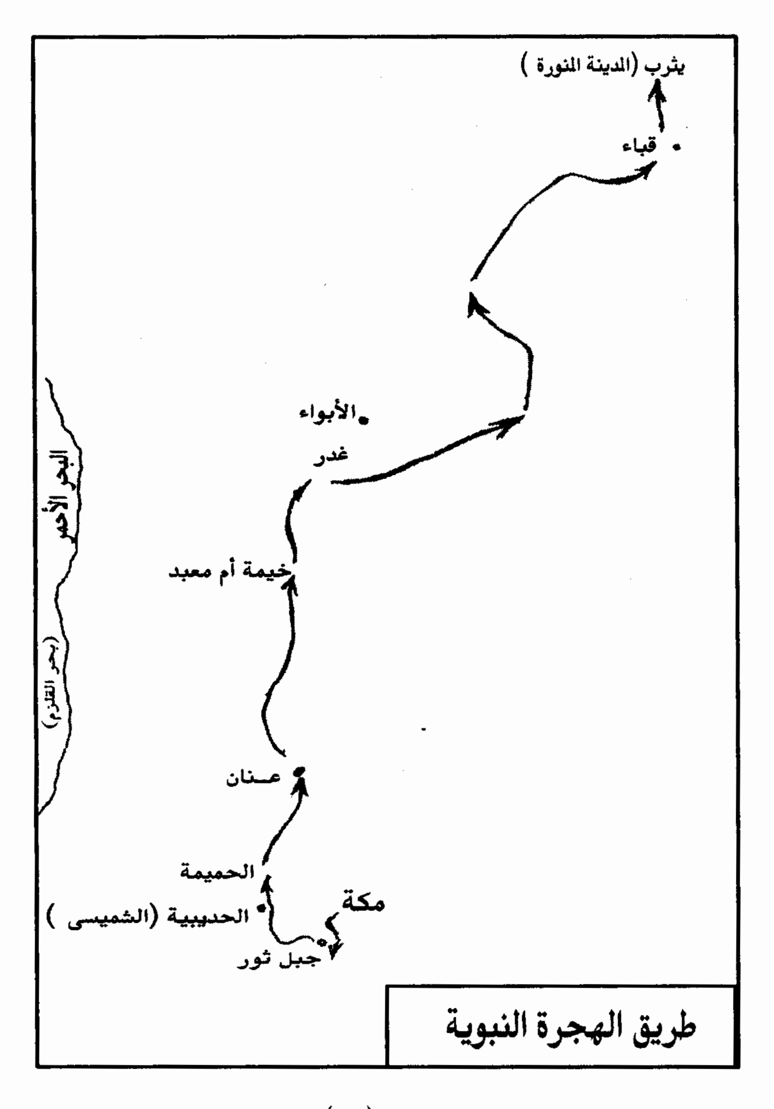
شكل (١٢)

صورة لغار ثور الذي اختبأ فيه الرسول ﷺ وصاحبه

وكانت تأتي لهما بالطعام أسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين)؛ بعد ثلاثة أيام .. غادر الرسول وصاحبه غار ثور ومعهما عبد الله بن أريقط.

ولندع الثلاثة في طريقهم إلى يثرب، [انظر شكل (١٣)] ونعـود إلى مكة لنرى ما كان من أمر قريش.

استيقظ الرجال من غفوتهم، وراحوا يمسحون النعاس عن أجفانهم، والتراب من على رؤوسهم، وما يملكون وهم يتهامسون، أو يتلاومون أو يتصايحون .. إلا أن يمسكوا دهشتهم بعد أن عرفوا أن عليا هو الذي يرقد في فراش محمد. كان هؤلاء الرجال كصياد توغل في الصحراء؛ بحثًا عن صيد، فهبت عليه عاصفة ريح رملية أفقدته الرؤية، فضل طريقه، حتى ضاع منه صيده، وتاه في الصحراء؛ لا يستطيع العودة من حيث أتى! وما أحسب إلا أن بعضًا من هؤلاء الرجال قد أدركوا أن محمدًا على حق، ولعل بعضهم تمنى أن يلحق به مهاجرًا إلى يثرب.



شكل (١٣)
طريق الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة

لم تمكن قريش لتكف عن الترصد بمحمد وأصحابه، حتى بعد أن هاجروا بدينهم إلى يثرب التي أصبح اسمها مدينة الرسول أو المدينة المنورة.. ذلك لأن قريشًا خشيت أن يكثر مناصرو محمد، مما يقويه، ويرفع أمره، ويكثر أعوانه.. من أجل هذا: كان عليهم أن يعدوا الخطط التي تعلن عن عداوتهم له، ولذلك دارت بين محمد وأصحابه من جهة، وقريش وكفار مكة من جهة أخرى .. مصادمات أطلق على بعضها (السرايا[1]) مثل السرية التي قادها حمزة بن عبد المطلب، أو تلك التي قادها عبيدة بن الحارث، وسرية عبد الله بن جحش، وبعضها أطلق عليها الغزوات مثل غزوة بدر في رمضان سنة ٢ هجرية التي انتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا، وفيها قتل بلال معذبَّه أمية بن خلف، وقتل معاذ بن عمرو أبا جهل بن هشام، وأسر كثير من سادة مكة .. ثم كانت معركة أحد التي شاء الله أن تكون درسًا للمسلمين، وفيها قتل حمزة عم الرسول، سيد الشهداء.. قتله وحشى الحبشى، وكم سعدت بذلك هند بنت عتبة انتصارًا لمقتل أخيها.. وهكذا استمر الصراع بين الطرفين .. في انتظار ما تحمله الأحداث التي كانت تؤكد المزيد من انتصار الإسلام.

فمتى استطاعت الخفافيش أن تحجب ضوء الشمس؟!

---

(١) السرايا: معارك لا يزيد عدد أفرادها عن ٤٠٠ مقاتل، لم يشهدها الرسول.

سعد أهل يثرب بمحمد الذي هداهم إلى الحق، وكان محمد أكثر سعادة بهم، فهم الذين آزروه وناصروه وعزَّروه، وكانوا له درعًا ضد المعتدين، ووقف الأنصار مواقف بطولية وإنسانية رائعة مع إخوانهم المهاجرين، ونجح محمد في المؤاخاة بين أكبر القبائل (الأوس والخزرج) ورأب الصدع بين المتخاصمين، فعاش الجميع في محبة وسلام؛ لولا ما كان يدبره اليهود من مكر وحقد، فكفاه الله شرارهم.

لم يكن محمد ﷺ، وقد استقر بالمدينة المنورة لينصرف عن مكة .. كثيرًا ما كان يحن إليها .. يتحرق شوقًا للعودة إليها .. يستعيد ذكريات عزيزة عليه .. يتذكر تلك الأيام السعيدة التي عاشها في كنف زوجته خديجة وعمه أبي طالب.. حتى تلك الأيام التي ناصبه فيها قومه العداء له ولدينه ولمن آمن معه .. وكثيرًا ما كان محمد يدعو ربه .. يناديه:

- **الله حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، وبارك لنا فيها..**

وكانت السيدة عائشة تقول: لولا الهجرة لسكنت مكة، فإني لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة.

وإذا كانت الظروف مهيأة لحب الرسول وصحبه للمدينة وأهلها، فقد بقى قلبه معلقًا بمكة وبالكعبة .. كثيرًا ما كان يتذكرها في صلاته، وهو متجه إلى بيت المقدس، حيث كان مسراه، وشاء الله لنبيه أن يريح خاطره، ويسعد أتباعه، فنزل عليه جبريل بوحي من الله:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

كان ذلك على رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة، وسعد محمد والمسلمون جميعًا؛ المهاجرون والأنصار بأمر الله لهم، فأي سعادة يستشعرونها، وهم يتجهون كل يوم في صلواتهم الخمس إلى الكعبة .. بيت الله الذي بناه خليل الله إبراهيم وجدهم إسماعيل، وحزن اليهود لانصراف المسلمين عن بيت المقدس؛ حتى لقد حاول كعب بن الأشرف أحد زعمائهم وسفهائهم أن يصرف محمدًا وصحبه عن الكعبة، ليعودوا إلى قبلتهم السابقة، ولكنه كان أمرًا من الله، وما يستطيع كعب أن يمنع مشيئة الله.

كان المهاجرون أكثر سعادة بأمر الله لنبيهم، فما أعظم سعادتهم، وهم يتجهوون إلى مكة حيث مدارج طفولتهم، وأصحابهم وأهليهم.

هكذا عاش المسلمون في المدينة، وقد عاد الرباط بينهم وبين

الكعبة في إحدى شعائر دينهم؛ الصلاة .. وما كان ذلك إلا ليزيدهم لهفة إليها، ورغبة في الطواف حول الكعبة. أليس هذا الطواف حقًا لجميع القبائل؛ تحقيقًا لدعوة إبراهيم عليه السلام .. حين أذن في الناس ذات يوم بعيد أن يأتوا إلى الكعبة من كل فج عميق؟ وما أقرب يثرب إلى مكة، وما أقرب الكعبة إلى قلوب أهلها.

من أجل ذلك .. بقي الأمل عالقًا بنفوس محمد وصحبه في زيارة مكة .. يشدهم الحنين، ويدفعهم الرجاء ويحدوهم الأمل.

كانت الأحداث في المدينة تتابع في معظمها على خير ما يرتضيه محمد وصحبه، فقد أقبل إلى المدينة كثير من القبائل معلنة إسلامها، ونجح المسلمون في إعلاء كلمة الله، والانتصار على قريش واليهود في أكثر من معركة، ولقي كثير من أعداء الإسلام نهايتهم، ووضع الإسلام من المبادئ ما يثبت دعائمه، وارتفع شأن المسلمين، وعلت مكانتهم بين القبائل .. لكن كل هذا لم يكن ليصرفهم عن شوقهم إلى مكة والكعبة. وكان الرسول ﷺ قد أنبأهم ذات يوم وهم في المسجد النبوي برؤيا رآها: أنهم سيدخلون المسجد الحرام.

.. حتى إذا كان العام السادس من الهجرة .. استقر رأي محمد ﷺ وصحبه على الذهاب إلى مكة معتمرين .. مسالمين .. لا محاربين، ولئن اختلف المسلمون فيما بينهم أيدخلون مكة مسلحين؛ أمنًا من غدر قريش .. أم يدخلونها عزلًا من السلاح؛ درءًا للقتال في المسجد الحرام في الأشهر الحرم، فقد استقروا على أن يدخلوها،

وهم لا يحملون من السلاح إلا السيوف في أغمادها.

بدأ المسلمون رحلتهم، وانضم إليهم بعض من القبائل العربية من غير المسلمين، وسار الجميع من المدينة في بداية شهر ذي القعدة في موكب بلغ عدده ١٤٠٠ فرد، حتى إذا بلغوا منطقة (ذي الحليفة) أحرموا للعمرة، وعزلوا الهدى، ثم مضوا في طريقهم .. يتقدمهم الرسول فوق ناقته القصواء .. تسابق اللهفة خطواتهم .. حتى إذا اقتربوا من مكة .. علت أصواتهم بالتلبية:

- لبيك اللهم لبيك .. لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

ما كادت قريش تعلم بمقدم محمد وما جاء من أجله، حتى ارتج عليهم الأمر، وغشيتهم سحب الخوف والقلق؛ مما دفعهم إلى الإصرار على منع محمد وصحبه من الدخول إلى مكة، وزادوا إصرارًا وغلوا في عنادهم، وأذاعوا بين القبائل أن محمدًا جاء لمقاتلتهم في البيت الحرام، ليؤلبوهم على المسلمين، وأصر كل من الطرفين على موقفه: المسلمون عازمون على دخول مكة معتمرين، وقريش يمنعونهم وما شاءوا، وبلغ الرسول وصحبه إلى عسفان، وعلم بتكتل قريش وحلفائهم، ورأى فرسانهم .. يتقدمهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فكان عليه أن يبتعد بالمسلمين، ليسلكوا طريقًا آخر .. حتى إذا بلغوا موضع الحديبية .. دارت بين الطرفين مفاوضات، وتعددت بينهم الرسل، وكان ممن بعث بهم

محمد ﷺ إلى قريش لمفاوضتهم: فراش بن أمية الكلبي، ثم بُديل بن ورقاء ثم عثمان بن عفان .. أما رسل قريش إلى محمد فكانوا عروة ابن مسعود ثم مكرز بن حفص (الشاعر) ثم الحلبي بن زنان الذي اقتنع بحق المسلمين في دخول مكة مما أغضب قريشًا!! وانتهى الأمر بعقد عهد الحديبية، وكان من أهم شروطه أن يرجع المسلمون هذا العام دون دخول مكة، على أن يعودوا إليها في العام القادم.

أرأيت كم يحزن الصادي في الصحراء وقت الهاجرة.. يتطلع إلى سحابة علّها تسقط بعضًا من مطر؛ يطفئ بها صداه، فإذا السحابة تمضي بعيدًا .. دون أن تبض له بقطرة ماء!

هكذا كان المسلمون وهم يعودون إلى المدينة؛ دون أن يتزودوا بنظرة للبيت الحرام، ليطفئوا بها شوقهم، وما كان هذا الحرمان إلا ليُزيد جذوة الشوق اشتعالاً تحت بصيص رماد الصبر .. عامًا آخر.

حتى إذا دار الفلك دورته، وعاد سيرته، وانقضى العام، وهلّ هلال شهر ذي القعدة من العام السابع للهجرة .. نادى الرسول في المسلمين أن يتجهزوا للخروج إلى مكة، فخرج من المهاجرين والأنصار ألفان.

بدأ المسلمون رحلتهم .. يتقدمهم الرسول .. يغذُّون السير في طريقهم .. السعادة تغمرهم، ولهفتهم تسابق خطواتهم، فإذا بلغوا إلى مشارف مكة .. ارتفعت الهتافات بالتلبية .. تدوي في سمائها ..

حتى لتكاد يتردد صداها فيما حولها، وكأن الكون كله يردد معهم كلمات تلبيتهم، ويتجاوب مع أصواتهم، وكأن الفضاء الواسع حولهم يشاركهم فرحتهم، ودخل المسلمون مكة في موكب ملائكي مهيب .. يتقدمهم الرسول، وقد أمسك عبد الله بن رواحة بخطام دابته، فما بلغ المسجد الحرام؛ حتى اضطبع[1] بردائه، وأخرج عضده اليمنى وهو يقول:

- **اكشفوا عن المناكب، واسعوا في الطواف .. الله يرحم امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة.**

وبدأ الرسول والمسلمون الطواف حول الكعبة .. كانوا يمشون حينًا، ويهرولون حينًا آخر، ليعلنوا عن قوتهم[2]، ولعلهم في طوافهم قد استعادوا ذكريات خلت، ولعل محمدًا وهو يستلم الحجر الأسود قد تذكر ما كان من أمره ذات يوم حين اختلف القوم فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه، فكان محمد حكمًا عدلاً أنهى بحكمه وحكمته ما كان يشتجر بينهم من خلاف.

ذكريات كثيرة ومشاعر طيبة .. عاشها المسلمون، وهم يؤدون مناسكهم، حتى إذا فرغوا من الطواف .. اتجهوا ليسعوا بين الصفا

---

(١) اضطبع: جعل إزاره تحت إبطه اليمنى، وألقى بطرفيه على كتفه اليسرى .. إعلانًا للقوة التي كان على المسلمين أن يظهروا بها أمام أعدائهم، وقد صار هذا الاضطباع سنة أثناء الطواف في الحج والعمرة.

(٢) كانت قريش تعتقد أن المسلمين قد وهنوا وضعفوا بسبب حمى أصابتهم في المدينة.

والمروة، ولعلهم تذكروا في سعيهم جدتهم الطاهرة هاجر التي غدا مسعاها منسكًا من مناسك الحج والعمرة، ثم صعد بلال إلى سطح الكعبة .. يؤذن للصلاة. وكان صوته يدوي في جنبات مكة، تتناثر كلماته لتصل إلى من فيها.. حتى أولئك الذين كرهوا أن يسمعوا صوته[1].

كانت قريش قد أخلت مكة، وضربوا خيامهم فوق التلال، وفي الأودية حولها، وصعد بعضهم إلى جبل قبيس ينظرون إلى محمد وأصحابه، وهم يطوفون ويسعون ويلهجون بالدعاء والتلبية؛ حتى لتكاد تهتز الجبال من قوة دعائهم. وبقى المسلمون بمكة ثلاثة أيام .. يؤدون صلواتهم في المسجد الحرام .. يسعدون بما أفاء الله عليهم من نعم وفضل .. كم تمنوا لو طال بهم المقام في الأرض المباركة التي باركها الله وبارك حولها .. لكن الأيام الثلاثة انتهت سريعًا. وعلى محمد أن يفي بوعده، فأذن بالناس للرحيل.

ترك المسلمون مكة عائدين إلى المدينة، فبينما هم في طريقهم نزل على رسول الله قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح: ٢٧].

---

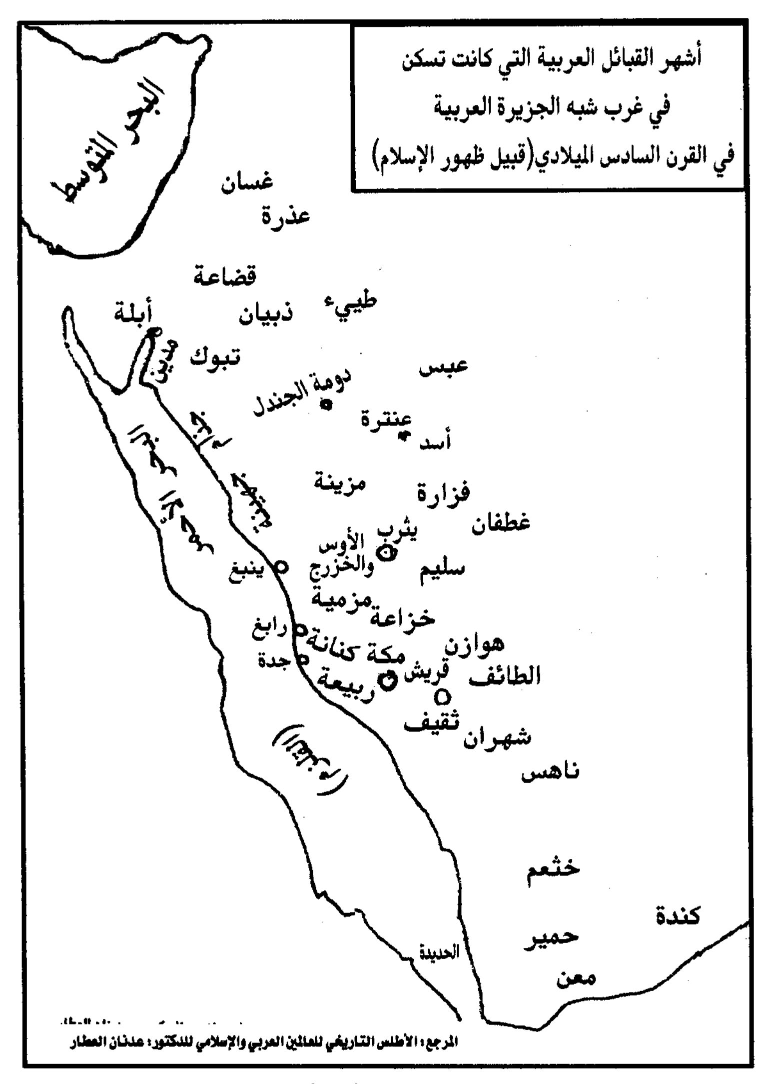
(١) من هؤلاء: عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وخالد بن أسيد .. كان ذلك حقدًا على بلال الذي كان عبدًا رقيقًا، ثم غدا في مكانة وعزة بين المسلمين.

(٢٢)

كانت عمرة القضاء فاتحة خير على المسلمين، وكانت زيارة البيت الحرام والطواف حول الكعبة زادًا لهم يدفعهم لمزيد من الانتصارات، فلم يمض غير قليل، حتى وفد إلى الرسول كثير من أهل مكة؛ يعلنون إسلامهم، وكان من هؤلاء خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة (حارس الكعبة) وغيرهم ممن اقتنعوا بدين محمد، وأشرقت نفوسهم بالإيمان، ووجدوا في الإسلام شعاع نور تستضيء به نفوسهم مما علق بها من أدران الشرك والجاهلية، بل لقد أصبح هؤلاء درعًا للإسلام، واشتركوا في معارك كثيرة للدفاع عنه مثل: موقعة مؤتة وموقعة تبوك فيما بعد.

وأقبلت إلى المدينة كثير من القبائل تعلن انضمامها لمحمد، مثل قبائل سليم وغطفان ومزينة وعبس وذبيان وفزارة، شكل (١٤) ممن أدركوا ما سيكون للإسلام من شأن وقوة .. حتى لقد انضم إلى المسلمين قائد من قواد الروم هو فروة بن عمر الخزامي الذي رفض أن يرتد عن الإسلام رغم محاولات الروم، وإغرائهم له.

وبقي المسلمون يتطلعون إلى العودة لزيارة مكة والكعبة يتذاكرون عندها ما كان بالأمس وقبل الأمس، وكم تاقت نفوسهم أن يكون المسجد الحرام والكعبة خالصين لهم متى شاءوا، وليطهروا الكعبة من الشرك والوثنية، لتعلو كلمة الإسلام على الدوام.



شكل (١٤)

أشهر القبائل التي كانت تسكن شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

وجاءت الفرصة السانحة .. سريعة .. حين نقضت قريش صلح الحديبية بمساعدتها قبيلة بكر في اعتدائها ومباغتتها لخيام قبيلة بني خزاعة التي كانت في حمى المسلمين، وكان على المسلمين أن يناصروا بني خزاعة على أعدائهم بني بكر وحلفائهم من قريش .. من أجل هذا تهيأ المسلمون لدخول مكة.

مضى جيش المسلمين .. يتقدمهم رسول الله وأبو بكر وعمر في اليوم الثامن من شهر رمضان سنة ٨ هـ في جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وانضم إليهم ألف مقاتل من قبيلة سليم، وألف من قبيلة مزينة وكثير من المهاجرين والأنصار..

سلك جيش المسلمين طرقًا غير مطروقة، فمضوا في دروب بين الجبال دون أن يعلنوا عن أنفسهم، لكن قريشًا علموا بخروج المسلمين من المدينة في طريقهم إلى مكة؛ لينتصروا لحلفائهم بني خزاعة، وأدركوا أنهم لا قبل لهم بجيش المسلمين، ولا يستطيعون مقاومته، فحاولوا أن يرسلوا الرسل إلى محمد كي يثنوه عن عزمه، واستنكروا على أنفسهم ما فعلوه ببني خزاعة .. آملين أن يصرفوا محمدًا ورجاله عما شاؤوا . إلا أن المسلمين كانوا مصرين على مناصرة حلفائهم واستعادة البيت الحرام، وتطهير مكة من الأوثان، وشاء الله مزيدًا من قوة المسلمين. فقدم إلى الرسول كثير من سادة مكة يعلنون إسلامهم، و كان من هؤلاء العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة.

كان محمد عليه الصلاة والسلام سعيدًا بما أفاء الله عليه من فضل، وبما هيأه له من قوة أصبح لها ميزان بين باقي العرب، وإن كان يشغله أمر هام، وهو في طريقه إلى مكة، فكم يتمنى لو قدر له أن يحرز نصره، ويحقق أمله .. دون أن تراق دماء، أو تزهق أرواح، وكم دعا الله أن يهيئ له ما يكفيه شر القتال، وطعنات السيوف.

بلغ محمد إلى (ذي طوى) وأدهشه وأسعده ما رأى، فقد أخلت قريش مكة والكعبة، ولجأوا إلى جبالها وروابيها يحتمون بها، وإلى شعابها ودروبها، وليروا ما يفعله المسلمون.

قسم محمد ﷺ جيشه إلى أربعة أجنحة، وكل جناح إلى ألوية وكتائب، وبقى هو في الوسط ومعه أبو بكر الصديق وأسامة بن زيد.

كان الجناح الأيسر يقوده الزبير بن العوام، ليدخل مكة من الجهة الشمالية، وكان الجناح الأيمن يقوده خالد بن الوليد، ليدخل مكة من جهة الجنوب، وكان أهل المدينة بقيادة سعد بن عبادة، ليدخلوا مكة من جهة الغرب، أما المهاجرون فكانوا بقيادة أبي عبيدة ابن الجراح، ليدخلوا مكة من أعلاها.

وبلغ المسلمون إلى أعلى مكة قبالة جبل (هند)، فضُرب للرسول قبة ليستريح فيها، وما كاد يفعل .. حتى وفدت إلى ذهنه ذكريات عزيزة عليه، فعلى مقربة من هذا المكان، كان مثوى زوجته الغالية خديجة، وقبر عمه أبي طالب، كم تمنى لو طال بهما العمر،

ليشهدا نصر الله له، وليسعدا بما أفاء الله عليه من فضل، وحانت من الرسول التفاتة نحو المسجد الحرام .. تتوسطه الكعبة .. تهفو إليها نفسه .. كأنها تفتح له ذراعيها .. كأنها تدعوه؛ ليطهرها مما علق بها من أدران الشرك.

ومضى المسلمون في طريقهم، فدخلوا مكة من كل جهاتها ما عدا الجهة الجنوبية حيث كان بعض المشركين يقاتلون، يقودهم عكرمة بن أبي جهل .. يحاولون منع المسلمين من الدخول، لكن خالد بن الوليد وجنوده استطاعوا هزيمتهم، ففروا .. تاركين المسلمين يدخلون مكة.

لقد وعى التاريخ فيما وعاه من أحداث هامة .. تلك اللحظات السعيدة التي عاشها المسلمون، وهم يدخلون المسجد الحرام، ثم وهم يطوفون حول الكعبة، وهم يلمسون الحجر الأسود.

أرأيت كم يسعد الغريب حين يثوب إلى أهله ودياره بعد طول فراق؟! هكذا كان المسلمون، وهم يطوفون بالكعبة .. بعد عطش ولهفة السنين الماضية .. تتسلل إلى قلوبهم نسمات شذية تزيدهم إيمانًا وسعادة.

ودخل محمد الكعبة، فمحا ما كان على جدرانها من صور ورسوم، ثم اتجه إلى الأصنام، فراح يضربها بقضيب في يده؛ لتهوى جثثًا هامدة، أو قطعًا متناثرة، كم عجب القرشيون، أو لعلهم أسفوا

على تلك الأصنام، وهي تتهاوى، فلا تملك الدفاع عن نفسها .. حتى كبيرهم هبل سقط على ذراعه الذهبية! ولعلهم في دهشتهم وأسفهم أحسوا بالندم حين بدت لعقولهم الحقيقة .. حقيقة ما كانوا يفعلون من تقديس وتقرب لهذه الآلهة التي تناثرت أشلاء وقطعًا في صحن المسجد .. ليجمع المسلمون بقاياها، ويلقوا بها بعيدًا؛ إعلانًا لنهاية عهد الشرك والوثنية والضلال، وكم سعدوا، وهم يهتفون من أعماق قلوبهم:

- جاء الحق وزهق الباطل .. إن الباطل كان زهوقًا.

لم ينس الرسول بئر زمزم .. تلك التي فجرها الله ذات يوم بعيد عند قدمي جده إسماعيل، والتي أعاد حفرها جده عبد المطلب، فكانت ريًا للحجيج على مدى السنين؛ فاتجه إليها، وشرب من مائها.

ومضى الرسول والمسلمون إلى الصفا، فسعوا بينها وبين المروة سبعة أشواط، كما فعلت من قبل جدتهم هاجر ذات يوم بعيد، حين كانت تبحث عن ماء لولدها إسماعيل.

وصعد بلال إلى سطح الكعبة، يؤذن:

- حي على الصلاة .. حي على الفلاح.

وارتفعت كلماته في الفضاء الواسع المترامي، يعلن عن انتصار الإسلام، وبداية عهد جديد للكعبة.

كان القرشيون يتابعون ما يحدث في المسجد الحرام، فأقبلوا من فوق الجبال والروابي، ومن الشعاب والدروب، يعلنون إسلامهم، ويدخلون في دين الله أفواجًا .. كانوا سعداء بهداية الله لهم، وتطهير نفوسهم من أدران الشرك، لكنهم خائفون، فهم الذين آذوا محمدًا وصحبه، وناهضوا دعوته، واضطروه إلى الهجرة إلى ديار غير دياره، وحرموا عليه الكعبة ومكة، فيالها من آثام اقترفوها في حقه..

ومن أجل ذلك أقبلوا على محمد، والأمل في سماحته يدفع خطواتهم، والخوف من العقاب يقلقهم .. أقبلوا عليه، وقد تعلقت به أفئدتهم، فإذا به يقبل عليهم، وهو يقول لهم:

- **ما تظنون أني فاعل بكم؟!**

كم تحيِّرهم الكلمات!! فيحسبون فيها الخير لهم، وكم تخيفهم، فيخشون الانتقام، ولكنهم لا يملكون إلا أن يقولوا:

- أخ كريم وابن أخ كريم.

ترى هل كان هؤلاء يعلمون تلك الصلة التي تربطهم بمحمد، وإذا كانوا يعلمونها، فلماذا أساءوا إليه، و ناصبوه العداء؟!

ويقف القرشيون صامتين .. خاشعين، ينتظرون ماذا يفعل بهم أخوهم وابن أخيهم .. لحظات قاسية عاشها القوم.

يتلهفون إلى إجابة لسؤالهم .. تكاد تقفز قلوبهم من صدورهم

.. لكن الرسول بابتسامته المشرقة .. قال لهم:

- **اذهبوا، فأنتم الطلقاء..**

يا لرحمتك يا رسول الله .. ألست نبي دين السماحة والعفو والسلام؟ هؤلاء الذين آذوك .. تطلق سراحهم، فهم أحرار .. إنه السمو في التعامل والأخلاق.

وبقى الرسول في مكة خمسة عشر يومًا يجوس خلالها .. يستعيد ذكريات أيام عاشها .. يسأل عن أهلها، يتصفح وجوه القوم، فيسعد بلقائهم.. يقرأ على قسماتهم سعادتهم بالإسلام.

حتى إذا كان اليوم السادس من شهر شوال لسنة ٨ هـ غادر الرسول ومن معه مكة، وما تزال نظراتهم شاخصة إلى الكعبة .. متجهين إلى المدينة .. يدفعهم الأمل، ويحدوهم الرجاء في العودة إليها.



(٢٣)

لم تنقطع الصلة بين المسلمين ومكة بعد فتحها، وإذا كانت المدينة المنورة هي العاصمة السياسية للدولة الإسلامية، فقد كانت مكة هي المدينة المقدسة بفضل الكعبة المشرفة، وهي مركز الحج، وزاد شأنها بعد أن طهرها محمد ﷺ من الأصنام وبقايا الشرك والوثنية.

وجاء العام التالي للفتح .. العام التاسع للهجرة، وكان على المسلمين أن يؤدوا فريضة الحج .. أحد أركان الإسلام، ولأن الرسول مشغول باستقبال الوفود القادمة من أنحاء كثيرة، من الطائف واليمن والبحرين وعمان، وبإرسال الرسل إلى جهات أخرى لدعوة أهلها للإسلام، فقدم أناب عنه أبا بكر الصديق في إمارة المسلمين في حجهم هذا العام.

وحينما كان موكب الحجاج في طريقهم إلى مكة .. نزل الوحي على رسول الله ﷺ من سورة التوبة .. تحدد أسسًا للتعامل مع المشركين.

ويهمنا من هذه الآيات ما يتصل منها بأمور الحج والكعبة ومكة، وأهم ما جاء فيها:

١ - الله - ورسوله - بريء من المشركين .. إلا إذا تابوا وأسلموا، وإلا فلهم عذاب أليم.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣].

٢- من كان له عهد عند النبي ﷺ، ولم ينقضه، ولم يظاهر عليه أحدًا، فعلى المسلمين الالتزام بهذا العهد، حتى تنتهي مدته.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

٣- حتى تنتهي الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتال .. فمن حق المسلمين قتال المشركين حتى يسلموا، ويؤدوا شعائر الإسلام.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

٤- المشركون نجس، فلا يقربوا المسجد الحرام، ولا يطوفوا حول الكعبة بعد هذا العام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

من أجل هذا بعث الرسول على بن أبي طالب، ليلحق بموكب الحجاج، ليبلغهم ما جاء بهذه الآيات الكريمة.

حينما وصل على بن أبي طالب إلى مكة .. كان المسلمون يؤدون مناسك الحج، فراح يخطب فيهم .. يوضح لهم ما جاء في سورة التوبة، ويدعوهم إلى العمل بها.

وانتهى موسم الحج، وعاد أبو بكر والمسلمون إلى المدينة.

***

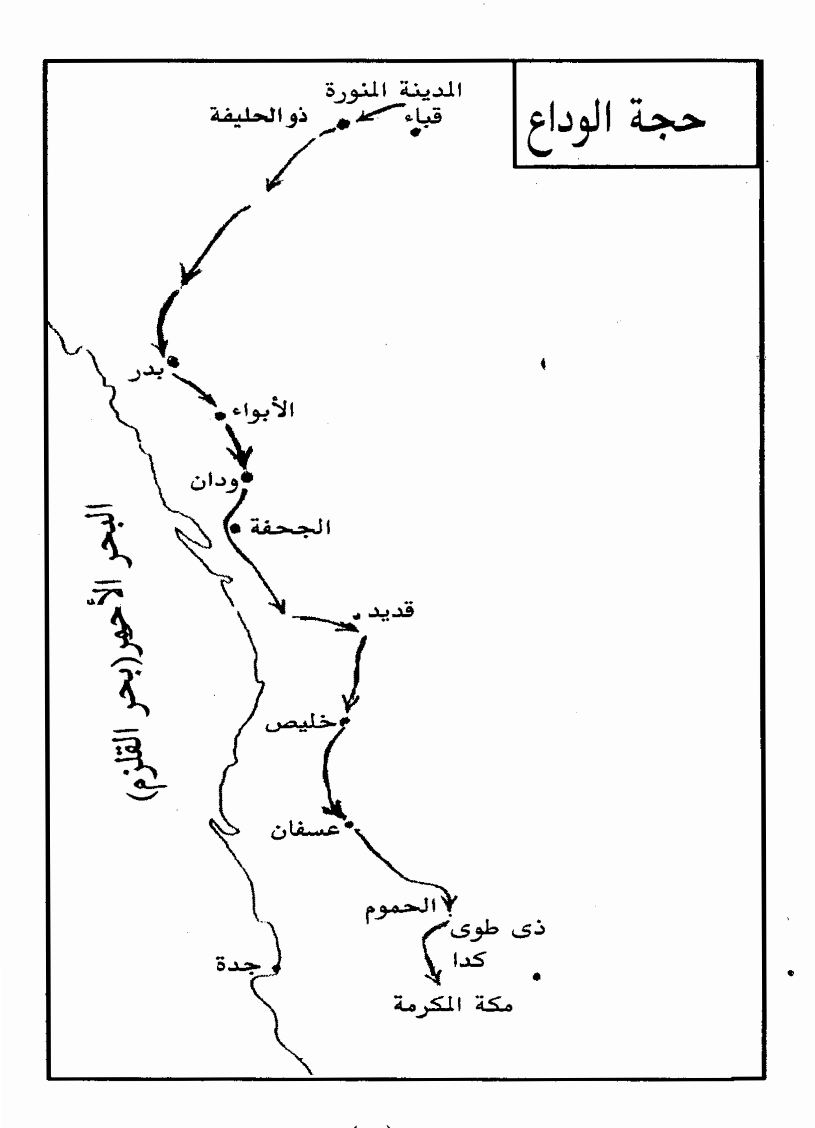
ودار الفلك دورته، وعاد سيرته، وجاء العام العاشر من الهجرة، وفي أواخر شهر ذي القعدة.. تولى الرسول ﷺ قيادة المسلمين للحج، وقد عرفت هذه الحجة بحجة الوداع (انظر خريطة شكل ١٥)مناسك الحج وشعائره وسننه، وكان يخطب فيهم في كثير من مواقع ومشاعر الحج، يوضح لهم تعاليم الإسلام ووصاياه، ويدعوهم إلى تحريم القتال في الأشهر الحرم.. في مكة وفي الكعبة وفي البيت الحرام، ويحرم عليهم الربا والنسيء[1]، ويوصيهم خيرًا بالنساء.

وفي هذه الحجة نزل عليه قول الله تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [المائدة: ٣].

وعاد الرسول بعد ذلك إلى المدينة؛ يواصل نشر دعوته، وتعاليم دينه، حتى توفى في العام الحادي عشر من الهجرة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٦٣٢م).

---

(١) النسيء: تأخير أيام الشهور عن موعدها مثل تأخير أواخر الأشهر الحرم.



شكل (١٥)

مسار الرسول والمسلمين في حجة الوداع من المدينة المنورة إلى مكة

مضى رسول الله ﷺ إلى جوار ربه؛ شأنه في ذلك شأن غيره من البشر والرسل السابقين.. فاختار المسلمون أبا بكر الصديق خليفة لهم[1] .. ليمضي بهم في الطريق الذي بدأه الرسول الكريم، ومن بعده تولى الخلافة عمر بن الخطاب[2]، ثم عثمان بن عفان[3] ثم علي بن أبي طالب[4].

والتاريخ يذكر للخلفاء الراشدين أنهم اهتموا بالكعبة ومكة والمسجد الحرام:

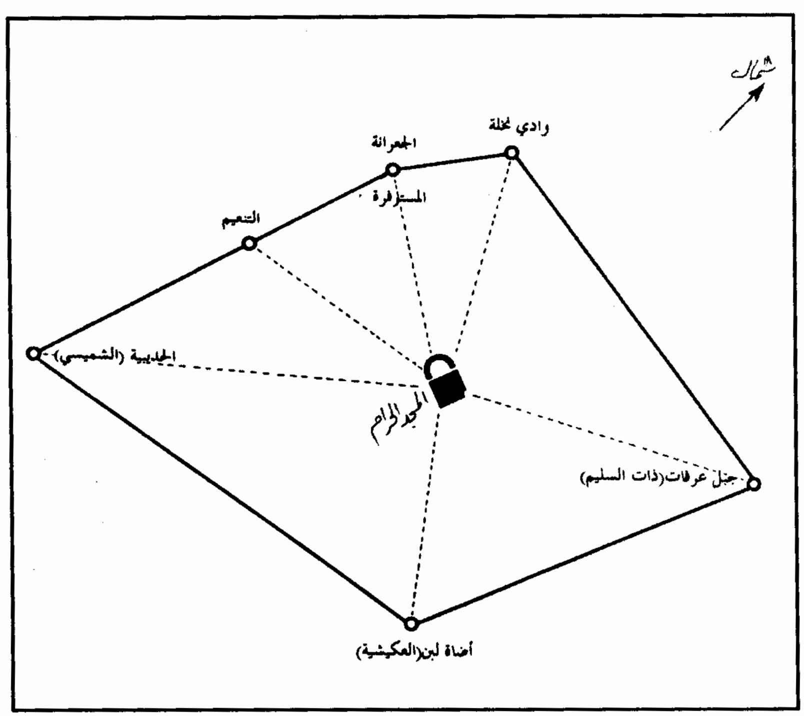
فقد قام أبو بكر الصديق ببناء سور حول المسجد الحرام، حتى يفصله عن الدور المحيطة به.

واشترى عمر بن الخطاب بعض الدور حول المسجد، وهدمها، وأضافها إلى المسجد الحرام، فاتسعت مساحته، وفصله عن الدور المحيطة به، كما قام بإعادة حدود الحرم المكي[5]، ونصب عليها أعلامًا من الجهات الخمس هي عبارة عن أحجار مرتفعة قدر متر على جانبي الطريق، وهذه الحدود هي:

---

(١) من سنة ١١- سنة ١٣هـ (٦٣٢- ٦٣٤م).
(٢) من سنة ١٣ – سنة ٢٣ هـ (٦٣٤- ٦٤٤م).
(٣) من سنة ٢٣ – سنة ٣٥ هـ (٦٤٤- ٦٥٦م).
(٤) من سنة ٣٥ – سنة ٤٠ هـ (٦٥٦ – ٦٦٠م).
(٥) هذه الحدود معلومة منذ عهد إبراهيم .. أراها له جبريل، وقد أعيد تجديد تحديدها في عهد قصى، وفي عهد النبي بعد فتح مكة، ثم في عهد عمر بن الخطاب، ثم في عهد معاوية بن أبي سفيان، ثم عبد الملك بن مروان.

من الشمال: التنعيم: على بعد ٦ كيلو مترات من مكة.
من الجنوب: أضاة: على بعد ١٢ كيلو مترًا من مكة.
من الشرق: الجعرانة: على بعد ١٦ كيلو مترًا من مكة.
من الشمال الشرقي: وادي نخلة: على بعد ١٤ كيلو مترًا من مكة.
من الغرب: الشميسي (الحديبية): على بعد ١٥ كيلو مترًا من مكة. انظر شكل (١٦)



شكل (١٦)

حدود الحرم المكي.

كذلك اهتم عمر بن الخطاب بالكعبة، وكساها بالأنماط والبسط والقباطي (من مصر[1]) والحلل.

واشترى عثمان بن عفان دورًا حول الكعبة، وأضافها إلى المسجد الحرام، ووسعه حتى يتسع للمصلين والحجاج الذين زاد عددهم نتيجة لاتساع الدولة الإسلامية .. كذلك قام عثمان بن عفان بزيادة ارتفاع جدار المسجد الذي يفصل بينه وبين الدور المحيطة به، وجعل للمسجد أروقة، وسقَّفه حتى لا يتعرض زواره لحرارة الشمس.

فلما كانت خلافة على بن أبي طالب .. بدأت مرحلة تاريخية جديدة .. ستظهر معالمها فيما سيستجد من أحداث سياسية، تنعكس آثارها على الكعبة والمسجد الحرام كما سيأتي بعد.

* * *

(١) فتح العرب مصر في خلافة عمر بن الخطاب وبقيادة عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ (٦٤١م).

(٢٤)

نبتت نبتة الإسلام في مكة .. تشق الأرض الجرداء؛ لتخرج إلى الوجود، ولقد حاول أعداء الإسلام أن يقضوا على النبتة في مهدها، او يمنعوها من أن تنمو وتكبر؛ فما استطاعوا؛ ذلك لأن الله تعالى شاء لهذه النبتة ان تعلو؛ لتغدو عودًا أخضر .. يتعهدها رسول الله والذين آمنوا معه بالرعاية والحماية ..

حتى كبر العود واستوى سوقه ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، ثم لتمضي الأيام، ويكبر العود؛ ليصبح شجرة باسقة .. أصلها ثابت وفرعها في السماء .. فينانة أغصانها .. وارفة أوراقها .. مكتنزة بثمارها .. أكلها دائم بإذن الله .. تمنح ظلالها لمن يلجأ إليها من لظى الشرك والضلال .. كم سكن في ظلالها كثير ممن هربوا من هجيرة الكفر والوثنية، فأظلتهم بوارف أغصانها، ومنحتهم من أريجها ما أنعش صدورهم بنور الإيمان.

هكذا كان الإسلام منذ بدأ نزول الوحي على محمد في مكة، فآمن به بعض من أهله وصحبه، ثم كانت هجرته إلى المدينة، وما تلاها من أحداث انتهت بفتح مكة، وتطهيرها من أدران الشرك والوثنية، وأصبحت راية الإسلام ترفرف على كثير من أنحاء شبه الجزيرة العربية وما حولها، واتسع امتدادها في عهد الخلفاء الراشدين .. ولتصبح الشجرة .. شجرة الإسلام أكثر ازدهارًا،

وأوسع ظلالاً.

ولكن .. ما بال القوم الذين نعموا بظلال شجرة الإسلام يختلفون ..؟! يتقاتلون!! حتى ليكاد اختلافهم يدفعهم إلى أن يتلفوا بعضًا من أوراق هذه الشجرة وأغصانها ..!! يحاول بعضهم أن يستأثر بالسيطرة عليها.. يفرض إرادته على من حوله . حتى يكبر الصراع، ويتسع الصدع نتيجة لهذه الخلافات.

هكذا بدت الحال بعد مقتل عثمان بن عفان .. حين اتهم أنصاره وأقرباؤه على بن أبي طالب بالتحريض على قتله، وطالبوه بالقصاص من قاتليه.

وإذا كان التاريخ يذكر لنا فيما يذكره من حقائق .. تلك العداوة القديمة بين هاشم (جد على) وأمية[1] (جد معاوية)، وتلك العداوة التي اشتهر بها أبو سفيان بن حرب لرسول الله ودعوته.

.. حتى إذا كانت سنة ٣٥ هـ (٦٥٦)م بايع كثير من المسلمين على بن أبي طالب خليفة لهم، فقام بعزل بعض الولاة من أقارب عثمان؛ مما أثار حفيظتهم، ودفع ببعض المسلمين إلى نقض مبايعتهم

---

(١) مما يروى عن الخلاف بين هاشم وأمية ما حدث بينهما حين تفاخرا أيهما أعز وأكثر فضلاً، واحتكموا إلى كاهن، فحكم لهاشم بالفضل على أمية، مما دفع الأخير إلى الرحيل إلى الشام، فكان ذلك أول عداوة بين هاشم وأمية.

لعلى، وكان من هؤلاء: الزبير بن العوام[1]، وعبادة بن الصامت، وطلحة بن عبيد الله .. مطالبين بالقصاص من قتلة عثمان .. لكن عليا لم يستطع ذلك.

تلاقي جيش على مع معارضيه وأنصارهم في واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ التي شهدتها السيدة عائشة أم المؤمنين، وكانت الغلبة فيها لعلى وأنصاره.

وهكذا استقر الأمر لعلى خليفة للمسلمين، وبايعه كثير من أهل مكة والمدينة والبصرة والكوفة، ورفض المبايعة معاوية بن أبي سفيان والى دمشق، فسار إليه على بجيش، تقابلا في موقعة (صفين) في شهر ذي الحجة لسنة ٣٦ هـ وكاد على بن أبي طالب ينتصر؛ لولا أن أنصار معاوية رفعوا المصاحف على أسنة الرماح؛ إعلانًا لرغبتهم في تحكيم كتاب الله، وفي هذه المعركة قتل عمار بن ياسر[2].

اتفق المتخاصمون على التحكيم، فاختار على بن أبي طالب أبا موسى الأشعري الذي أعلن خلع على، بينما اختار معاوية عمرو ابن العاص الذي أعلن تثبيت معاوية.

وعادت الحرب بين الطرفين من جديد .. لكن عبد الله بن

---

(١) الزبير بن العوام: زوج أسماء بنت أبي بكر، أمه صفية بنت عبد المطلب عمة النبي، عرف بأنه حواري الرسول، وهو أحد المبشرين بالجنة، قتل في واقعة الجمل سنة ٦٥٦ م.

(٢) كان قتل عمار في هذه المعركة تحقيقًا لقوله ﷺ: **«يا ويح عمار تقتله الفئة الباغية!!»**.

الملجم أحد الخوارج قتل على بن أبي طالب سنة ٤٠هـ فبايع المسلمون الحسن ابنه خليفة لهم، إلا أن الحسن تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان الذي أسس الدولة الأموية[1]، وكان من أهم ما استحدثه التحول في نظام الحكم من الاختيار والشورى إلى الملكية والوراثة.

هذه صورة سريعة للظروف التي عاشها المسلمون بعد مقتل عثمان، مما كان له انعكاسات واضحة على تطور مجريات الأحداث التي وقعت لمكة والكعبة، كنتيجة لهذه الصراعات.

تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة ٤١ هـ ثم خلفه ابنه يزيد سنة ٦٠ هـ (٦٨٠م) هكذا عينه أبوه .. لكن عبد الله بن الزبير رفض مبايعة يزيد، وتحصن بالكعبة، وانضم إليه كثير من أهل الكوفة والبصرة ومصر وحمص فأرسل يزيد بن معاوية إلى مكة جيشًا بقيادة مسلم بن عقبة (وكان واليًا على المدينة) لإحضار عبد الله بن الزبير مغلولاً بقيود إلى دمشق .. لكن (مسلم) مات في الطريق، فخلفه الحصين بن نمير.

وصل الحصين إلى مكة .. يدفعه الحقد على عبد الله، والأمل في أن يحقق ما شاء .. لكن عبد الله رفض أن يمتثل لإرادة الحصين أو يزيد، وشجعته على ذلك أمه أسماء بنت أبي بكر التي قالت له:

(١) استمر حكم الدولة الأموية من ٤١ – ١٣٢هـ (٦٦٠– ٧٥٠م).

- يا بني: عش كريمًا، أو مت كريمًا، ولا تمكن بني أمية من نفسك.

لجأ عبد الله بن الزبير إلى الكعبة واحتمى بها، وضرب لرجاله خيامًا حولها.. لكن ذلك لم يمنع الحصين من إصراره على القبض على ابن الزبير، فحاصر الكعبة[1]، وأمر جنوده، فصعدوا الجبال حولها، وضربوها بالمنجنيق وكرات النفط، فانهارت بعض أجزائها، واحترقت كسوتها، وتهدم كثير من جدرانها.

كانت ضربات رجال الحصين تنهال على الكعبة، حتى ليكاد يسمع صوت أنين أحجارها!! بينما تتصاعد صيحات المسلمين .. تهتف أو تصرخ:

- ويحك يا حصين !! تحطم الكعبة ؟! بيت الله الحرام!!

وتناثرت أجزاء الحجر الأسود إثر ضربة منجنيق موجهة إليه، فتتجاوب معها صيحات الرجال .. يملؤها الألم ويعتصرها الحزن، وهم يهتفون:

- ويل لك يا ابن معاوية .. يا من نقضت عهد رسول الله، فبعثت من يحطم الكعبة..!!

- ويحرقها..!!

(١) كان ذلك في سنة ٦٤هـ (٦٨٣م).

- أما كفاه ما فعله رجاله بأحد ريحانتي رسول الله .. الحسين بن عليّ على ثرى كربلاء[1]؟

ويهتف آخرون:

- وايم الله .. إنها لفتنة، ما يفتأ العرب يتذكرونها، ثم لتكون صفحة سوداء في تاريخ بني أمية.

وأقبل من ينادي في القوم:

- أما سمعتم رسول الله حين قال يوم فتح مكة: «**إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، وإنه لم يحل القتال فيها لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد بعدي**».

هكذا كان القوم في مكة .. تعلو صرخاتهم .. تتصاعد ثورتهم .. يدعون الله الذي أنقذ بيته من أبرهة وتتابعة اليمن .. أن ينقذه من الحصين ورجال يزيد.

واستمر حصار الكعبة .. حتى بلغ الناس وفاة يزيد بن معاوية، ففت ذلك في عضد الحصين ورجاله، وكفوا عن ضرب الكعبة، ورحلوا إلى الشام.

وقد كان لهذا أثر في حقد الناس على يزيد وبنى أمية حتى إن كثيرًا من المسلمين بايعوا عبد الله بن الزبير، و كان من هؤلاء: عبد

(١) كان مقتل الحسين يوم عاشوراء المحرم سنة ٦١ هـ في كربلاء بالعراق (٦٨٠م).

الله بن علي بن أبي طالب .. وكثير من أهل الكوفة والبصرة واليمن وحمص .. إلا أن أهل الشام رفضوا المبايعة.

ولندع تلك الصفحات، لتبقى في ذاكرة التاريخ ما شاء الله لها أن تبقى، ونعود إلى الكعبة، لنرى ما كان من أمرها بعد ما أصابها من تصدع وتهدم على أيدي الحصين ورجاله ..

اختلف القوم، وهم ينظرون إلى الكعبة، وقد تناثرت أحجارها، حتى إن الحمام كان يقع على جدرانها فتتهاوى!! ترى ماذا يفعلون؟ أيهدمون الكعبة، ليعيدوا بناءها؟ .. أم يقومون بترميم ما تهاوى من أجزائها؟

كان عبد الله بن الزبير وجابر بن عبد الله وعبيد بن عمرو يرون أنه من الخير هدم الكعبة وإعادة بنائها، وقد أعلن عبد الله بن الزبير عن رأيه وحجته حين قال:

- والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه، فكيف أرقع بيت الله سبحانه وتعالى؟

اما عبد الله بن عباس، فكان يرى ترميمها دون هدمها، وقد أعلن عن رأيه للناس ولابن الزبير، حين قال:

- فإني أخشى أن يأتي من بعدكم من يهدمها، ثم يأتي بعد ذلك آخر فيهدمها، وما تزال تبني وتهدم وتبني، حتى تذهب حرمة بيت الله من القلوب.

وقد انتصر رأي ابن الزبير، فكان على المسلمين أن يهدموا الكعبة.

بدأ القوم، فأزالوا ما في صحن المسجد من بقايا وآثار الحريق والتهدم، ونصبوا حول الكعبة ستارًا من الخشب؛ يطوف حوله الناس .. كما تم إخلاء الكعبة من كنوزها من حلى وطيب، ونقلت إلى بيت عثمان بن شيبة (صاحب الكعبة).. أما الحجر الأسود، فقد لفه ابن الزبير في ديباج وأدخله في دار الندوة.

جمع المسلمون الأحجار اللازمة لبناء الكعبة .. من عدة جبال: من حراء وثبير والمقطع وحلحلة وخندمة و.... حتى إذا انتهوا من هذا .. كان عليهم أن يبدأوا الهدم .. فمن يكون البادئ؟

خاف كثير ممن حضروا .. حتى أن بعضهم هرب إلى خارج مكة .. إلى الطائف أو إلى منى أو إلى رؤوس الجبال، فقد خشى هؤلاء أن يصيبهم أذى مما يفعلون (نفس الصورة التي كان عليها القرشيون ذات يوم، وهم يهدمون الكعبة قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام بخمس سنين).

والتفت الناس إلى بعضهم، وكأنهم يتساءلون:

- من يكون البادئ بهدم الكعبة؟

ولعل عبد الله بن الزبير، وهو في موقفه بين الناس .. تذكر الوليد بن المغيرة، ذلك الذي كان أول من بدأ هدم الكعبة أيام إعادة

بناء قريش لها .. نفس الصورة التي كان عليها الناس في هذا اليوم.

تقدم عبد الله بن الزبير، وقد أمسك بالمعول في يده، وصعد إلى سطح الكعبة، وسمى باسم الله، ثم هوى بمعوله على أعلى أحد الجدران، فتهاوت أحجاره، وتساقطت الواحد تلو الآخر، والقوم ينظرون إليه بين الخوف والإشفاق والدعاء له ..

ومرت اللحظات، والناس يرقبون عبد الله دون أن يصيبه أذى، مما شجعهم على مشاركته، وأقبل العمال من أهل مكة وما حولها بمعاولهم وفؤوسهم وسواعدهم.. يزيلون بقايا الجدران المتهدمة، حتى وصلوا إلى قواعد البيت .. تلك الأحجار المتراصة المتداخلة على شكل أسنمة الإبل والتي حاول أحدهم[1] أن يضربها ليحركها، أو يفصلها .. فإذا مكة كلها ترتجف، حتى لتكاد جبالها تتساقط أحجارها !!، فبكى الرجل وأبكى معه آخرين، فأدرك القوم أن هذه الحجارة هي قواعد البيت الذي أقام إبراهيم عليها بيت الله، فكان عليهم أن يبدأوا عملية بناء الكعبة.

تذكر عبد الله بن الزبير ما قالته له خالته أم المؤمنين السيدة عائشة؛ عما حدثها به رسول الله ﷺ، الذي قال لها:

- إن قومك استقصروا في بناء البيت، ولولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة، ولأعدت إليها ما تركوا، ولأدخلت فيها

(١) هو عبد الله بن مطيع العدوى.

الحِجْر، ولجعلت لها بابين موضوعين على الأرض: بابًا شرقيًا وآخر غربيًا .. يدخل الناس من أحدهم، ويخرجون من الآخر.

لذلك انتهى ابن الزبير إلى إعادة بناء الكعبة وفقًا لما وصفته له السيدة عائشة، وما كان يتمناه الرسول الكريم.

كم سعد ابن الزبير والمسلمون، وهم يقومون ببناء الكعبة، ولعلهم كانوا يرددون ذلك الدعاء الذي كان يدعو به إسماعيل وإبراهيم:

- ربنا .. تقبل منا .. إنك أنت السميع العليم.

والتاريخ يذكر لعبد الله .. أنه ارتفع ببناء الكعبة .. إلى سبعة وعشرين ذراعًا .. أي زادا ضعفين عما كانت عليه، وأضاف إليها حجر إسماعيل .. فزاد بذلك اتساعها حوالي عشرة أذرع، وجعل لها بابين، تحقيقًا لما كان يريده النبي، كما جعل لها سقفًا.

أما بالنسبة للحجر الأسود الذي كان قد تصدَّع إلى ثلاثة أجزاء، وانفصلت عنه إحداها نتيجة ضربات الحصين، فقد ربطه عبد الله بن الزبير بأسلاك من الفضة، ثم اتفق مع ابنه عباد وجبير بن شيبة، فوضعا الحجر الأسود في مكانه أثناء صلاة الظهر.

ولما غضب بعض سادة وزعماء مكة من تصرف ابن الزبير، وعدم إشراكهم في وضع الحجر الأسود .. استطاع إقناعهم، فقد كان يخشى أن يشتجر بين المسلمين خلاف كما وقع قبل بعثة

الرسول، ولم يجد القوم إلا أن يرتضوا بما حدث.

اهتم ابن الزبير كذلك بالمسجد الحرام حول الكعبة، فزاد من مساحته، وأقام الأروقة، وجعل لها عمدًا من الرخام، وزاد في أبوابه وحسنها، وسوى أرضية المسجد وكساها بالحجارة.

وأعاد عبد الله بن الزبير إلى الكعبة كنوزها من طيب وحلى، ومسح على جدرانها بالطيب والمسك والعنبر، و كساها بالديباج والقباطي، وحلى بابها بالذهب، وجعل لها مفاتيح من الذهب.

أدرك عبد الله بن الزبير فضل الله عليه وعلى المسلمين حين شاء له أن يصلح ما أفسده الحصين ورجاله مما سيبقى ذكره في صفحات التاريخ، واعترافًا بهذا الفضل من الله، أذن في الناس للعمرة، فأعاد للمسلمين صورة الوحدة والتآلف.. تجمعهم سنة الإسلام وهم يطوفون حول الكعبة، وهم يسعون بين الصفا والمروة. فيا لسعادة هؤلاء بما أوتوا من فضل.



(٢٥)

عادت حمائم الحمى ترفرف في سماء الكعبة، وفي ساحة المسجد الحرام وحوله.. تلتقط حبات القمح والشعير .. سعيدة بعودة السلام إلى بيت الله، وغدت مكة دوحة سلام وأمان .. يستظل بها، ويأمن فيها الضاحون من لهيب الصحراء، والقادمون من مختلف الجهات .. حجاجًا وعمارًا.

وعظم شأن عبد الله بن الزبير، بعد انسحاب قوات الحصين، ونجاحه في إعادة بناء الكعبة بالصورة التي تمناها رسول الله ﷺ في حديثه لزوجه عائشة..

وقد أدى هذا إلى زيادة أتباعه ومناصريه، وساعده على ذلك ما اشتهر به من العلم[1] والتقوى والصلاح، والزهد والتقشف، والإكثار من الصلاة والقيام ما بين هجعة الليل ويقظة الفجر، كثيرًا ما كان يقضي أيامه صائمًا. لا يستوقد النار إلا قليلاً..

حتى إن كثيرًا من أهل الشام الذين كانوا يفدون إلى مكة للطواف والحج، أدركوا الفرق بين ابن الزبير والخليفة الأموي الذي كان يعيش في بذخ وترف .. يقضي وقته بين مجالس الغناء ومجامع

---

(١) كان عبد الله بن الزبير هو أحد الأربعة الذين كتبوا مصحف عثمان بن عفان. وقد شاركه في هذا زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، (البداية والنهاية لابن كثير).

الأنس، يستمتع بأطيب الطعام والشراب.. يطلب الثناء والمديح ممن حوله .. يسعد بالأفواه تقبل أعتابه، والرؤوس تنحني لهم تجلّة أو مذلة، والقلوب تخفق لرؤيته خوفًا ورهبة، شتان بين الاثنين.

لذلك .. اتسعت المناطق التي بايع أهلها عبد الله بن الزبير خليفة للمسلمين لتشمل: شبه الجزيرة العربية واليمن والعراق ومصر، فأصبحت خلافة معاوية الثاني «ابن يزيد» ومن بعده مروان ابن الحكم – مقصورة على الشام .. حتى إن بعض المؤرخين يعتبرون ابن الزبير هو خليفة المسلمين في هذه الفترة. وقد أدى هذا إلى زيادة أنصار ابن الزبير في صراعه مع الأمويين ومبايعته، والوقوف بجانبه. وكان من هؤلاء: الخوارج الأزارقة والشيعة، كما بعث إليه نجاشي الحبشة فرقة من الجند كان لهم دور في الدفاع عن الكعبة، وإعادة بنائها.

هذه هي الصورة التي عاشتها الكعبة في تلك الفترة.. فلما تولى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الخامس سنة ٦٥هـ (٦٨٥م). أحس بالخطر الذي يحدق به من اتساع سلطة ابن الزبير وأعوانه، فعمل قدر طاقته على تقليص نفوذه، واستعادة سلطة الأمويين.

أرسل عبد الملك إلى مكة جيشًا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، وتقابل مع جيش ابن الزبير خارج مكة .. في سهل عرفة وفي منى، وانتصر الحجاج، مما شجعه على المضي في القتال، وكان قد وصله مدد من الخليفة الأموي، فاتجه إلى مكة، وأعلن ابن الزبير أن

يختار بين ثلاثة: إما أن يذهب في الأرض حيث يشاء، أو يبعثه إلى الشام مقيدًا بالحديد، أو يقاتل حتى يقتل .. وقد اختار ابن الزبير الأمر الثالث، وهو القتال، واتجه ورجاله إلى الكعبة، واحتموا بها، فأسرع الحجاج ورجاله، فنصبوا المجانيق حولها.. استعدادًا لضربها!

كان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٧٢هـ أحد الأشهر الحرم، وكانت الوفود من مختلف الجهات ترد إلى الكعبة للحج والطواف. فكيف يأمن الناس على حياتهم وسط هذا الصراع الدموي المحموم بين الطرفين المتنازعين؟! لذلك .. أرسل عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى الحجاج ينهاه عن ضرب الكعبة في الشهر الحرام، حتى لا يحول بين الحجاج وأداء مناسكهم ..وإذا كان الحجاج قد انتظر حتى انتهى موسم الحج، فإن الثابت أن حجيج الكعبة لم يستطيعوا الوقوف بعرفة لوجود جيش الحجاج بها، كما أن رجال الحجاج لم يستطيعوا الطواف حول الكعبة.

بدأت قوات الحجاج تضرب الكعبة ورجال ابن الزبير..

ضربات متتالية متتابعة بلا هوادة. فقُتل كثير منهم، حتى حينما نزلت على رجال الحجاج صاعقة من السماء لم يكفوا عن ضرب الكعبة، وكانت أصوات طلقاتهم تعلو فوق صوت الصاعقة.

ونتيجة لقسوة ضربات الحجاج .. انسحب كثير من أنصار ابن الزبير بعد أن طلبوا الأمان، فأمنهم وضمهم إلى صفوفه، وحاول

حمزة وخبيب ابنا عبد الله بن الزبير أن يقنعا أباهم بالصلح، ووقف القتال .. لكنه رفض، فانضما إلى جيش الحجاج، وبذلك ضعفت قوات ابن الزبير، واتجه إلى أمه .. يستشيرها.. علَّه يجد عندها ما يريح خاطره المكدود، ويعيد إليه الأمل، فقال لها:

- أماه، خذلني الناس حتى أهلي وولدي، ولم يبق معي إلا القليل، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا، فما رأيك؟

قالت له أمه، والأسى يملأ جوانحها، والأمل يمسك عليها أحزانها:

- يا بني .. أنت أعلم بنفسك. إن كنت تعلم أنك على حق فاصبر، ولا تمكن رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت أردت الدنيا، فبئس العبد أنت .. أهلكت نفسك، وأهلكت من معك!!

فقال:

- أخشى إن قتلوني أن يمثلوا بي.

قالت له:

- وهل يضر الشاة سلخها بعد ذبحها؟

كانت كلمات أسماء بنت الصديق .. دافعًا لابنها على المضى في طريق القتال، فخرج من عندها، وهو يهتف:

ولست بمبتاع الحياة بسبة ... ولا مرتق من خشية الموت سلمًا

ثم عاد إلى رجاله، وراح يقاتل أعداءه في شجاعة وبسالة وصبر.. حتى أصيب بحجر في جبهته، ففلق رأسه، وسقط على الأرض، وحاول أن ينهض، فلم تسعفه قوته، فقد نزف منه دم كثير، وقال وهو يتطلع إلى من حوله، وإلى السماء:

يا رب .. إن جنود الشام قد كثروا
وهتكوا من حجاب البيت أستارًا

يا رب إني ضعيف الركن مضطهد
فابعث إليَّ جنودًا منك أنصارًا

لكن الأعداء تكاثروا عليه، وتلاحقت سهامهم قبل أن تندمل جراحه، وقتلوه .. كان ذلك في شهر جمادي الأولى سنة ٧٣هـ، واجتزَّ الحجاج رأسه، وصلبه منكسًا على ثنية (كدا) عند الحجون.

كم سعد الحجاج بمقتل ابن الزبير، وأسرع فبعث بالبشرى إلى سيده عبد الملك. بينما بقى جسد الشهيد مصلوبًا.. يراه المارة!!

وكم حزن الناس في مكة لما أصاب ابن الزبير، وهم يمرون عليه، ويرونه مصلوبًا، فيقول قائلوهم:

- لك الله يا أبا خبيب.

- أما والله .. لقد كنت صوامًا وقوامًا.

- أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟!

ولا بد أنهم لعنوا الحجاج، ولعلهم تذكروا ما حدث ذات يـوم بعيد، لنبي الله يحيى بن زكريا عليهما السـلام .. الـذي ذبحـه رجـال هيرودس، وفصلوا رأسه عن جسـده، ليقـدموه هديـة في طبـق مـن ذهب لفاسقتين: سالومي وأمها هيروديا!!

ترى هل كان ابن الزبير- حين حدث أمه بخوفه من أن يمثلوا به بعد قتله- قد كشف عنه حجاب الزمن، فرأى في حياته ما سيحدث له بعد وفاته؟!

كم حزنت أسماء بنت أبي بكر على ابنها، فاحتسبته شهيد الحق والدين .. حتى حينما بعث الحجاج إليها؛ لتأتي لتأخذ ابنهـا، وقـال لها رسوله:

- لتأتيني، أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك!!

قالت أسماء لرسول الحجاج:

- والله لا آتيه، حتى يبعث إليَّ من يسحبني من قروني.

فذهب الحجاج إليها، ودخل عليها، وقال لها:

- كيف رأيتني صنعت بعدو الله؟!

قالت له أسماء:

- رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسدت عليك آخرتك .. بلغـني أنك كنت تقول له: يا ابن ذات النطاقين .. أنا والله ذات النطاقين ..

أما أحدهما .. فكنت أرفع به طعام رسول الله وطعام أبي بكر، وأما الآخر .. فنطاق المرأة الذى لا تستغنى عنه.

ثم سكتت قليلاً، وهي تنظر إليه نظرة سخط، وقالت:

- أما والله إن رسول الله حدثنا أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا، فأما الكذاب.. فرأيناه، وأما المبير، فلا أخالك إلا إياه.

وما يستطيع الحجاج إلا أن يمضي عن أسماء .. فقد خذله لسانه.. لم تسعفه الكلمات، فلزم الصمت، أو لعله كان يشعر بمرارة جريمته.

ثم قامت أسماء إلى ابنها، فغسلته، وطيبته، ودفنته وبعض رجاله.

لم يكتف الحجاج بما فعله بابن الزبير حيًا.. فقد كانت نار الحقد عليه أقوى من أن تضعف، حتى بعد مماته.. فبقيت تضطرم في صدره .. يشعلها ما تركه ابن الزبير في نفوس الناس من حب له، وحزن عليه.

وإذا كان عبد الله بن الزبير قد أعاد بناء الكعبة، فقد شاء الحجاج أن يهدم ما بناه. لعله أراد بهذا أن يقضي على مآثره، بعد أن قضى على حياته.

من أجل ذلك بعث الحجاج إلى عبد الملك بن مروان في دمشق

.. ينبئه بما كان ابن الزبير قد استحدثه عند بناء الكعبة.. حين أدخل بها حِجْر إسماعيل، وزاد اتساعها .. محاولاً تعتيم الحقائق على سيده، واستأذنه في أن يعيد الكعبة إلى ما كانت عليه أيام قريش.

قام الحجاج بسد الباب الغربي للكعبة، فأصبح لها باب واحد، وهدم الجدار من جهة الحجر، وأنقصه من الكعبة، وأعاد بناءه على ما كان عليه من قبل، ولو قدر له أن ينقص من ارتفاع الكعبة .. لفعل .. ولكنه أبقى عليه.

ومضت الأيام .. وشاء الله أن تنكشف نوايا الحجاج، وأن تنتهك أستار التضليل التي خططها.

قدم إلى دمشق ذات يوم الحارث بن ربيعة المخزومي، وهو أحد العلماء والرواة المشهود لهم بالثقة، وسأله عبد الملك عن صحة ما حدَّثت به السيدة عائشة من حديث رسول الله، وما التزم عبد الله ابن الزبير في بناء الكعبة، فأخبره الحارث بصحة حديث رسول الله وحديث عائشة، وأن ما فعله ابن الزبير إنما هو الحق والصورة التي تمناها الرسول للكعبة.

عند ذلك أسقط في يد الخليفة الأموي، وحزن مما فعله الحجاج، ولعنه، وقال مقالته المشهورة:

- ودِدْت لو أني تركت أبا خبيب، وما تحمل من ذلك، وإني لنادم على ما حدث.

وجمع بعض العلماء وأصحاب الرأي وشاورهم في الأمر، وأعلن لهم عن رغبته في إعادة الكعبة إلى ما بناها عليه ابن الزبير . حتى يكفِّر عن خطئه، لكن العلماء نصحوه ألا يفعل .. قائلين له:

- يا أمير المؤمنين .. كعبة الله ليست ملعبًا للملوك والأمراء، وليست رهن رغباتهم .. هذا يهدمها، وذاك يبنيها، وهذا يغير فيها، وذاك يعيد تغييرها.

وإذا كان عبد الملك بن مروان ومن بعده خلفاء بني أمية، قد أحسوا بخطئهم لما فعله الحجاج، فقد حاولوا أن يكفروا عن بعض هذا الخطأ. فزاد عبد الملك بن مروان من ارتفاع حائط المسجد الحرام وسقَّفه بخشب الساج الداكن المتين، وجعل في رأس كل أسطوانة خمسين مثقالاً من الذهب، كما جدَّد حدود مكة، وأمر بترميم الكعبة بعد سيل جارف، ووسع المسجد الحرام، وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ٨٦- ٩٦هـ (٧٠٥- ٧١٥م) بعث إلى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسري، وأمره بتذهيب بابي الكعبة والميزاب والأساطين والأركان التي بداخلها، وفرش أرضيتها بالرخام، وآزر المسجد الحرام، وسقفه بالساج المزخرف . كما زخرف أعلى أبواب المسجد، وجعل له شرفات.

* * *

(٢٦)

اقتضت سنة الحياة .. النهاية لكل بداية، وحقائق التـاريخ علـى مر العصور تنبئنا بالكثير عن الدول التي علـت أنجمهـا، ثـم هـوت، وتلك التيجان التي ازدانت، ثم سقطت فوق أو بـرؤوس أصـحابها، وتلك الدول التي اتسعت واستطالت، ثم ذوت ودالت.

وإذا كان الأمويون بدأوا دولتهم بعد انتصارهم على العلويين.. فقد كانت نهايتهم على أيدي العباسيين[١] أبنـاء عمومـة العلـويين.. حين استطاع العباسيون الانتصار علـى الأمـويين في موقعـه الـزاب الأكبر (قرب الموصل) سنة ٧٥٠م. وفـر آخـر الخلفـاء الأمـويين إلى مصر، وهو مروان بن محمد .. حيث قتل، وبذلك سيطر العباسـيون على مقاليد حكم الدولة الإسلامية خلال ما يقرب من خمسة قرون، وجعلوا بغداد عاصمة لهم.

وبعيدًا عن اهتمام العباسيين بتوسيع دولتهم، وتثبيت دعائمهـا، وتقدم مظاهر الحضارة، فقد اهتم العباسيون بمكة والكعبة والمسـجد الحرام، رغم بعدها عن بغداد عاصمتهم.

فقد قام المنصور أبـو جعفـر[٢] الخليفـة الثـاني بتوسـيع مسـاحة المسجد الحرام من الجهة الشمالية الغربية، فأصبح ضـعف مسـاحته،

---

(١) نسبة إلى العباس بن عبد المطلب، وهو عم النبي وعم على بن أبي طالب.
(٢) استمر حكمه في الفترة من ١٣٦- ١٥٨ هـ (٧٥٤- ٧٥٥م).

وزخرفه بالذهب والنقوش والفسيفساء، وجعل له أعمدة من الرخام، وبنى مئذنة بني سهم، وغطى جدار حجر إسماعيل بالرخام، كما اهتم ببئر زمزم، وكانت مكشوفة فسقفها.

واهتم محمد المهدي[1] بن المنصور .. بالمسجد الحرام، فاشترى كثيرًا من الدور حوله، ووسعه من جهاته الشمالية والشرقية والجنوبية؛ حتى تصبح الكعبة في وسط المسجد، وأقام ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية والحجرية سقفها بالساج، وأنشأ أربعة أبنية خشبية للصلاة .. جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة مبني.

وقد تولى هذه المهام بأمر منه يقطين بن موسى الذي اهتم بتوفير الماء للحجاج في الطرق الموصلة إلى مكة، ونزع كسوة الكعبة القديمة، وكساها كسوة جديدة. وقد استكملت هذه الأعمال في عهد موسى الهادي سنة ١٦٧هـ.

وكان هارون الرشيد[2] يحج إلى الكعبة ماشيًا، ويتحمل نفقات من بصحبته من الحجاج، وحينما اعتمر سنة ١٨٩هـ قام بتثبيت الحجر الأسود بالفضة، واهتم ببئر زمزم، فزاد عمقها تسعة أذرع[3]؛ واهتم بمياه الحجاج، ولزوجته زبيدة بئر باسمها في وادي النعمان.

---

(١) لقب بالمهدي، لأنه كان يأمل أن يكون هو المهدي الموعود (المنتظر) الذي قيل إنه يظهر في آخر الزمان؛ ليملأ الأرض عدلاً.

(٢) تولى الحكم في الفترة من ١٧٠- ١٩٣هـ (٧٨٦- ٨٠٩م).

(٣) جاء في أخبار مكة للأزرقي أن عمق بئر زمزم ٦٠ ذراعًا، وبقاعها ثلاث عيون، عين بحذاء ركن الحجر الأسود، وعين بحذاء جبل قبيس، وعين بحذاء الصفا.

وفكر هارون الرشيد في هدم الكعبة وإعادة بنائها إلى ما كانت عليه أيام ابن الزبير، واستشار في ذلك الإمام مالك[1] الذي حذره من هذا، وقال له:

- ناشدتك الله يا أمير المؤمنين .. ألا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك .. لا يشاء أحد أن يهدمها، إلا هدمها، فتذهب هيبتها من صدور الناس، ويهون أمرها عليهم.

ولذلك امتنع الرشيد عن هدم الكعبة، وتركها كما هي.

فلما تولى الحكم محمد الأمين بن الرشيد[2] ضرب على باب الكعبة صفائح من الذهب بلغ وزنها ٣٣٠٠٠ مثقال..

كما اهتم بكساء الكعبة ثلاث مرات: الأولى بالديباج الأحمر يوم التروية، والثانية يوم هلال رجب بالقباطي، والثالثة بالديباج الأصفر يوم ٢٧ رمضان.

كذلك اهتم المعتضد العباسي بالمسجد الحرام، وأدخل فيه دار الندوة، وجعل له بابًا سماه باب الندوة.

ومما يذكره التاريخ للعباسيين أنهم أكثروا من الأعمدة الرخامية والحجرية التي أقاموها في المسجد الحرام، كما اهتموا بمواكب الحج

---

(١) هو مالك بن أنس، ولد بالمدينة، وكان أعلم أهلها، وهو أحد الأئمة الأربعة وصاحب المذهب المالكي – من مؤلفاته موطأ مالك . توفى سنة ١٧٩ هـ ودفن بالبقيع.

(٢) بين عامي ١٩٣– ١٩٨هـ (٨٠٨– ٨١٣م).

التي كانت تتجه إلى مكة من عواصم الولايات التابعة لهم .. مصر والشام والعراق وفارس.

وإذا كانت إشراقة الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ (٧٥٠م)، فقد كان مغربهم في عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) حيث ضعف حكامهم، وازداد نفوذ العناصر غير العربية كالفرس والأتراك والبرامكة.. مما شجع كثيرًا من الولايات التابعة لهم على الاستقلال بالحكم، كما فعل أحمد بن طولون في مصر، ومن بعده الاخشيديون .. وصلاح الدين الأيوبي.. وكما حدث في مناطق أخرى؛ الدولة الطاهرية، الغزنوية، البويهية، الحمدانية، الفاطمية، السلاجقة، ثم القرامطة، الذين سيكون لهم أمر في تاريخ مكة والكعبة والمسجد الحرام.



(٢٧)

كان ذلك سنة ٣١٩هـ.. ارتفعت أصوات الحجيج .. تلبي دعوة إبراهيم ومحمد عليهما السلام، وتعالت الدعوات إلى الله في المسجد الحرام حول الكعبة، وفي منى وعرفات وما بينهما، فقد كان اليوم هو يوم التروية .. وترددت أصوات الداعين والملبين في كل أنحاء مكة .. حتى لتكاد الجبال ترتجف .. خشية ورهبة.

ومضى الطائفون في طوافهم حول الكعبة .. استعدادًا للذهاب إلى منى وهم يهتفون:

- اللهم .. إن الحرم حرمك، وحرم رسولك، فحرم جسدي على النار.

- اللهم افتح لنا أبواب رحمتك.

- ربنا .. آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

- تباركت وتعاليت .. يا ذا الجلال والإكرام.

- اللهم .. إني أسألك الجنة ونعيمها، وما يقربني منها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار، وما يقربني منها من قول أو عمل.

فجأة..

.. برز من بين الصفوف رجل .. قد امتطى صهوة فرس جامح .. يحيط به ثلة من رجاله!! .. كان الرجل فيما بدا عليه مخمورًا .. يعلو صفيره، وقد أشهر سيفه في يده .. كمن يقاتل الهواء، أو كمن يهم بضرب عدو له، ورجاله من حوله يفعلون مثله!!

كان الرجل يخترق صفوف الطائفين والمصلين، فما يملك هؤلاء وهؤلاء إلا أن يخلوا له الطريق، ليمضي بعيدًا عنهم، وما زالت ألسنتهم تلهج بالدعاء لربهم:

- لا إله إلا الله.

لكن صوت الفارس ارتفع صائحًا .. مدويًا:

- أيها الناس .. كفوا عن هذا الدعاء.

وبين الدهشة والخوف والحزن، نظر الناس بعضهم إلى بعض، وإلى هذا الرجل الذي يمنعهم من الدعاء لربهم، وتقدم أحدهم إليه، وقال له:

- أيها الرجل .. من أنت؟ وكيف تمنعنا من ...؟

وقبل أن يكمل الرجل كلماته .. طوَّح الفارس بسيفه في الهواء، وهوى به على رقبته، فانفصل رأسه، وسقط جسده، ليستقر على أرض المسجد!.. بينما ارتفع صوت الفارس.. يجأر:

- أنا الله .. وبالله أنا!!

- ....!!

وعجب الناس من أمر هذا الرجل الذي دفعت به المقادير إليهم في هذا اليوم المبارك، ليفسد عليهم عبادتهم؛ وكاد بعضهم يتوقف عن الطواف .. بينما انصرف آخرون، والفارس يصيح في ثورة:

- أنا الله .. أخلق الخلق.

ثم مدّ يده إلى أقصى ما تصل، وحصد بسيفه كثيرًا من رقاب من اقتربوا منه، و هو يصيح في سعادة:

- وأفنيهم أنا ..!!

اقترب أحد الحجاج من الفارس الجامح المأفون، يدفعه إيمانه بالله وشجاعته، واتجه ببصره إلى السماء .. ينادي ربه:

- اللهم .. إنا نعوذ بك من الشرك والشقاق:

وتبعه آخر:

- ومن سوء الأخلاق.

لكن الفارس لم يمهلهما .. امتدت يده بسيفه إليهما، فقطع رقبتيهما، وهو يصيح:

- أنا الله .. وبالله أنا.

- ....!!

- أنا أبو طاهر القرمطي[1].

وارتجَّ على الناس، فقد تذكروا ما فعله القرامطة منذ خمس سنوات (٣١٢هـ) .. حين هاجموا الحجاج العائدين من مكة، واعترضوا طريقهم، وقتلوا الرجال، وأسروا النساء، واستولوا على أموالهم ومتاعهم.

وعاد القرمطي يصيح:

- ألستم تقولون: إن هذا البيت حرم .. ومن دخله كان آمنًا؟

- ....!!

- فأين لكم الأمان مني؟

ثم رفع رأسه إلى السماء وهو يقول:

- وأين الطير الأبابيل؟.. لقد كان أبرهة على حق حين جاء

---

(١) هو أبو طاهر سليمان أبو سعيد الجنابي .. زعيم القرامطة.. هم طائفة من الشيعة الإسماعيلية الباطنية.. أصلهم من خوارزم (على نهر آموداريا) وبعض المؤرخين ينسبون القرامطة إلى رجل يسمى أحمد المقرمط أو أحمد قرمط. أصله من الكوفة.. بني لنفسه مقامًا سماه دار الهجرة. وترجع بداية القرامطة إلى سنة ٢٨٦هـ، بالباطنية بزعامة أبي سعيد الجنابي.. ومن أهم مبادئ دعوة القرامطة؛ الزهد والتقشف، التساوى بين الطبقات على أسس ومقاييس فلسفية مناسبة لكل الأديان. كونوا لهم دولة مستقلة في البحرين، وجعلوا (هجر) عاصمة لهم، وفي عهد زعيمهم (زكرويه) هاجموا حمص وحماه، وكان هذا الزعيم يدعي أنه من سلالة على بن أبي طالب، ويلقب نفسه بأمير المؤمنين، وبعده خلفه أبو طاهر الذي جاء إلى مكة سنة ٣١٧هـ.

يهدم الكعبة .. هذا البيت العتيق.

وما يملك كثير من الناس إلا أن يتجهوا إلى الملتزم .. يتعلقون بأستار الكعبة .. يدعون الله .. يبتهلون إليه أن ينجيهم من هذا الملحد ورجاله. وحاول بعضهم الخروج من المسجد .. مؤثرًا النجاة والسلامة .. وبين هؤلاء وهؤلاء من استمروا في طوافهم ودعائهم .. لكن هذا لم يكن ليصرف القرامطة عما يفعلون، وما زادهم هذا إلا غلوًا وإصرارًا، وقائدهم يصيح فيهم:

- اقبضوا على هؤلاء وهؤلاء .. حاصروهم .. اقتلوهم .

وأقبل القرامطة على كل من كان في المسجد الحرام .. يحصدون رقابهم بلا هوادة ولا رحمة، وزعيمهم يستحثهم .. يشجعهم .. يشاركهم الطعن والقتال .. كثير من الرؤوس كانت تتطاير في الهواء.. بينما تتهاوى الأجساد .. تطؤها حوافر الخيل التي علا صهيلها، وما يستطيع الناس، وهم يتهاوون جرحي، أو يتساقطون قتلي إلا أن يمدوا في آهاتهم .. يعلنون عن آلامهم وسخطهم .. يختلط صراخهم وعويلهم بالدعاء لربهم .. يلعنون هؤلاء المارقين الملحدين، وغدت ساحة المسجد بركة آسنة من الدماء؛ كأن الأرض الظامئة أبت أن تروى ظمأها من دماء الشهداء الأبرياء!! واصطبغت جدران المسجد باللون الأحمر، وتراكمت الجثث .. فسحبها القرامطة إلى بئر زمزم حيث دفنوها .. بلا كفن ولا صلاة حتى يمنعوا العطاش عن مائها الطهور، فغاض ماؤها .. إعلانًا لما يفعله هؤلاء المفسدون.

كم سعد القرامطة بما يفعلون .. وكم كان سيدهم أكثر سعادة بما اقترفه في حق البيت وزواره!! ولم يكن قد أفاق من سكره؛ فأمر رجاله أن يتبعوا الناس، فمضوا في شعاب مكة ودروبها، وطرقها وروابيها .. يحصدون أرواح كل من يقابلهم. غلظت أكبادهم، وقست قلوبهم، وأظلمت أبصارهم، فعموا عما يفعلون.. حتى إذا عادوا إلى المسجد الحرام .. وجدوا زعيمهم قد جلس على باب الكعبة .. لعله أفاق من سكره .. وراح يستعيد ذلك الحلم الذي راوده، وهو أن يبني في (هجر) كعبة يحج إليها الناس.. نفس الحلم الذي راود غيره من قبل .. ابتداء من تتابعة اليمن، وأبرهة الذين عجزوا عن تحقيق أحلامهم، وما نالهم إلا الخزى والعار. أو عادوا إلى صوابهم، فعفا الله عنهم.

وقام القرمطي، فأمر رجاله، فاقتلعوا باب الكعبة، واستولوا على ما بها من كنوز وحلى، وما على جدرانها من ذهب، ثم أمر رجلاً من رجاله، فصعد إلى سطح الكعبة؛ محاولاً أن يقتلع الميزاب .. لكنه سقط جثة هامدة، ثم قام القرمطي إلى الحجر الأسود، فضربه بعصا من حديد، وانتزعه من مكانه!! وأخذوه حره معهم إلى الإحساء.

وعاد القرامطة بما يحملون .. تسبقهم أخبار قسوتهم، ولتبقى جريمتهم في صفحات التاريخ ذكرى وعظة!!

واستمر الحجر الأسود عند القرامطة ثم أعيد إلى مكة سنة ٣٣٩هـ.

* * *

(٢٨)

أشرقت الشمس بنور من ربها؛ فكست مكة وما حولها من بطحاء ورمال وجبال بكساء فضي جميل، وارتفع الضحى، وما تزال الشمس تعلو في الأفق، حتى توسطت السماء، وأخذت تلف الكون بغلاف ساخن مكبوت .. هكذا ألفها الناس.. حتى إذا كان أصيل هذا اليوم[١]، وراحت الشمس تنحدر وراء الأفق؛ لتخلّي مكانها لليل راحف.. أقبلت على مكة سحابة واسعة .. غطت سماءها، وسعد الناس بها، فقد وجدوا فيها بشرى لخير لهم، وسرعان ما تساقط المطر .. قطرات قليلة .. هادئة، ثم تزايدت القطرات وكبرت وثقلت .. حتى استحالت إلى مطر غزير .. جدًا .. ثم سيلاً جارفًا.

.. مع ذلك .. لم يتوقف الطائفون عن طوافهم حول الكعبة، ولم ينقطع المصلون عن صلاتهم .. ذلك لأن الله تعالى قد سطر في سجلات الخلود أن يستمر الطواف حول بيته .. لا يمنعه مقدم ليل، ولا حرارة شمس، ولا قسوة برد، ولا هطول أمطار. ألا تخلو ساحة المسجد من الطوافين والقائمين والعاكفين والركع السجود.

وأشرق صباح اليوم التالي، وما تزال الأمطار تنهمر بلا توقف .. وما يستطيع الناس إلا أن يدعوا الله أن يصرف عنهم غضبة السماء .. أن يوقف عنهم هذا السيل الذي لم يكن لهم به عهد، وهم

---

(١) كان ذلك يوم ١٩ شعبان سنة ١٠٣٩هـ (١٦٢٩م).

الذين كثيرًا ما صلوا صلاة الاستسقاء .. حين تضن عليهم السماء بمائها، فما بالها اليوم تغدق عليهم بهذه السيول؟!

يومان كاملان .. استمر فيهما هطول الأمطار والسيول.

.. حتى إذا أمسكت السماء عن أمطارها، واستعادت زرقتها وصفاءها .. اتجه أهل مكة إلى الكعبة، فراعهم ما شاهدوا.. لقد استباحت السيول المسجد الحرام، فتحول إلى بحر واسع حتى لتكاد المياه تصل إلى قمم قناديله[1].. تتوسطه الكعبة التي بدت كسفينة غرق بعضها .. وأدهشهم أن بعض الطائفين ما زالوا يطوفون حولها .. سباحةِ !! وهم يهتفون بالدعاء لربهم.

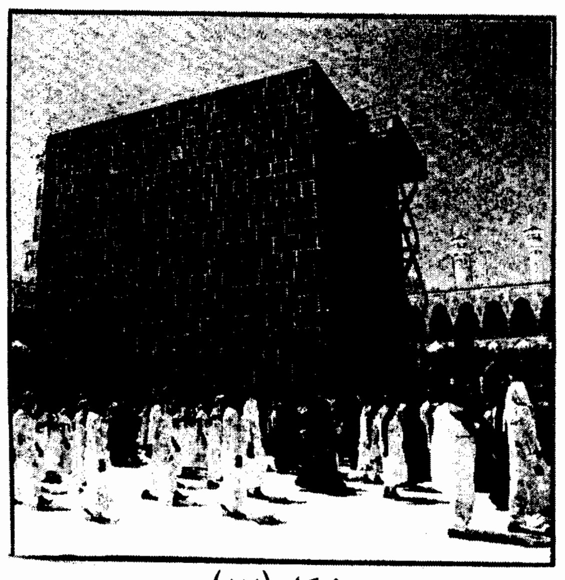
أسرع الناس؛ ففتحوا السراديب، لتمضي المياه بعيدًا .. أسفل مكة، وهم ينظرون إلى الكعبة .. يحاولون أن يستجمعوا شتات أفكارهم .. تزعجهم اللهفة مما قد يصيبها .. حتى إذا غيض الماء، وبدت أرض المسجد والكعبة، راعهم انهيار الجدار الشمالى للكعبة، وأجزاء من الجدارين الشرقي والغربي..

ترى ماذا يفعلون..؟!

كانت مكة وشبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت .. خاضعة للحكم العثماني[2]، وكان لبعض السلاطين العثمانيين جهود ملحوظة في العناية بالكعبة والمسجد الحرام، فقد قام السلطان

(١) كان عدد قناديل المسجد في ذلك الوقت عشرين قنديلاً من الذهب.
(٢) حكم العثمانيون شبه الجزيرة العربية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

سليمان سنة ٩٧٩هـ بتغيير سقف الكعبة، وتجديد المسجد الحرام، واستبدل أعمدة الأروقة بأعمدة من الرخام، وعهد بهذه الأعمال إلى المهندس سنان الذي أشرك معه كثيرًا من المصريين مثل شيخ المهندسين المصريين أحمد بك المصري، والمعلم محمد المصري .. كما قام السلطان أحمد سنة ١٠٢٠هـ بترميم جدران الكعبة، وكان يفكر في هدمها وإعادة بنائها بطوبة من الذهب وأخرى من الفضة .. لكن العلماء عارضوه في هذه الفكرة، فضرب حول الكعبة نطاقًا من النحاس الأصفر لحمايتها من الانهيار.



شكل (١٧)

منظر لجدران الكعبة بدون كسوة.

.. من أجل ذلك .. لم يكن أمام أهل مكة .. إلا أن يستنهضوا المسلمين للمساهمة في إصلاح ما أفسدته السيول، وأن يخبروا السلطان العثماني[1] بما حدث.

وأسرع شريف مكة، ومن قُدر له أن يحضر إلى بيت الله في هذه الفترة من أهل مكة وزوار البيت، فحملوا الفؤوس والمكاتل وأخذوا في تطهير المسجد من بقايا السيول من الطمى والرمال والأحجار والأخشاب، وأقاموا حول الكعبة ستارًا من الخشب لحماية الطائفين حولها.. في انتظار ما يأمر به السلطان العثماني.

كانت مصر – والتاريخ يذكر لها ذلك بكل فخر واعتزاز- أسبق وأسرع من السلطان العثماني إلى مكة، فبينما كان السلطان ما يزال يشاور رجاله .. كان والي مصر في ذلك الوقت محمد باشا الألباني قد بعث إلى مكة بالكثير من المهندسين والعمال المصريين.

بدأ القوم ترميم ما تهدم من جدران الكعبة، وإعادة الأحجار المنهارة إلى مكانها، لكنهم ما كادوا يفعلون .. حتى سقطت أمطار غزيرة، فامتلأت ساحة المسجد الحرام بالمياه مما ضاعف من زيادة الأجزاء المتهدمة لجدران الكعبة وأركانها، وأصبح من الواضح عدم جدوى الترميم، وأن الضرورة تقتضي هدم الكعبة وإعادة بنائها.

بدأ الجميع، فأزالوا الأحجار المتهدمة التي لم تعد صالحة،

---

(١) كان ذلك في عهد السلطان مراد الرابع.

واستبدلوها بأحجار أكثر صلابة وتحملاً.. حتى إذا انتهوا من ذلك بدأوا عملية البناء.

وتتابعت الأيام، والسواعد الفتية تعمل ليلاً ونهارًا بلا كلال، ولا إحساس بنصب .. يجمعهم التعاون، وترفرف عليهم راية الإسلام .. محبة وأمنًا وسلامًا .. يسعدهم أن يقوموا ببناء بيت الله .. الكعبة التي فضلها الله على غيرها من الأماكن الأخرى .. وباركها وبارك حولها.

وانتهى الجميع من إعادة بناء الكعبة بالصورة التي تمنوها.

وكان الحجر الأسود قد أصابه بعض الشقوق .. حتى كادت تتناثر بعض فتاته، فعالجه المهندسون وملأوا ما بين أجزائه بمركب يعيد إليه قوته، وشدوه بإطار من الفضة، كما تم تسقيف الكعبة، وترميم أعمدتها، وبناء حجر إسماعيل.

وإذا كان التاريخ يذكر للعثمانيين أنهم أعادوا بناء الكعبة، فإنه يذكر لهم أيضًا اهتمامهم بها وبالمسجد الحرام.

ففي سنة ١١٢٢هـ (١٧١٠م) أصلحوا قبة زمزم.

وفي سنة ١١٣٢هـ (١٧٢٠م) قاموا بترميم مقام إبراهيم.

وفي سنة ١١٤٠هـ (١٧٢٧م) تم فرش المسجد الحرام بالحجر المنحوت.

وفي سنة١٢٧٣هـ أرسل السلطان عبد الحميد ميزابًا من الذهب للكعبة

كما اهتم العثمانيون بإصلاح المسعى بين الصفا والمروة.

ألا إنها صفحات خالدة في تاريخ مكة والكعبة والمسجد الحرام.

(٢٩)

لم يكن التاريخ مجرد سرد لأحداث سطرها السابقون، وإنما هو أيضًا دروس معادة ومستفادة .. يتوارثها الخلف عن السلف، فتكون علامات مضيئة تنير لهم معالم الطريق في الحاضر والمستقبل.

وصفحات التاريخ القريب تذكر لنا أن أصول السعوديين.. ترجع إلى جدهم الأكبر محمد بن سعود[١] الذي كان صهرًا لمحمد ابن عبد الوهاب[٢] وناصره في نشر الدعوة الوهابية[٣].

وإذا كان العثمانيون بمساعدة محمد على والي مصر في ذلك الوقت، قد استطاعوا الانتصار على الوهابيين سنة ١٨١٨م في الدرعية، فقد بقيت مبادئ هذه الدعوة قائمة. حتى إذا كان القرن

---

(١) ينتهي نسبه إلى ربيعة بن نزار بن مضر بن عدنان.. حتى إسماعيل عليه السلام.

(٢) ولد عام١٦٩٦م في إقليم العارض من نجد، وهو أحد علماء الحنابلة .. اتصل بمحمد بن سعود أمير الدرعية، وناصره في نشر دعوته، وتزوج ابن سعود من ابنة محمد بن عبد الوهاب، فأنجب عبد العزيز الذي خلف أباه وجمع بين سلطان جده الديني ووالده السياسي، ونشر الدعوة الوهابية في كثير من جهات شبه الجزيرة العربية.

(٣) تقوم الدعوة الوهابية على أساس التوحيد، فالله وحده هو خالق الكون والمسيطر عليه، وبيده النفع والضر، ويرفض الوهابيون زيارة قبور الأولياء والتوسل بهم، والتقرب إليهم بالنذور، وإقامة الأضرحة باعتبارها صورة من صور الوثنية، كما يؤمن الوهابيون بالقرآن الكريم والسنة كمصدر للتشريع الإسلامي، ويرفضون البدع والتزين بالذهب والحرير، ويحرمون التدخين والمسكرات.

العشرون .. استطاع عبد العزيز آل سعود[1] دخـول مدينـة الريـاض سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٢م)، ثم استولى على القسيم سـنة ١٩٠٤، ثـم الإحساء سنة ١٩١٣، ثم حائل سـنة ١٩٢١، وفـرَّ آل الرشـيد، ثـم استولى على الطائف سنة ١٩٢٤ ثم مكة وجـدة والحجـاز، واضـطر الشريف حسين بن على إلى مغادرة البلاد، وأعلن عبد العزيز نفسـه ملكًا على الحجاز، وفي سبتمبر سنة ١٩٣٢ صـدر مرسـوم بتوحيـد أقاليم نجد والحجاز وعسـير في مملكـة واحـدة هـي المملكـة العربيـة السعودية.

منذ ذلك اليوم .. كان على السعوديين أن يسايروا ركب التقدم والحضارة والعمران التي صاحبت القرن العشرين.

ويذكر التاريخ للملك عبد العزيز آل سعود حكمته وقوة حجته ومنطقه في مناقشة وإقناع المعارضين والمتشددين من علمـاء الحنابلـة الذين كانوا يرفضون مظاهر الحضـارة والتقـدم باعتبارهـا مـن فعـل الشـياطين، واسـتطاع إقنـاعهم بمسـايرة روح العصـر، و إدخـال المخترعات الحديثة كالراديو والتليفون والسيارة، لأنها أدوات نافعـة ومفيدة بالإضافة إلى نشر التعليم، وإدخال العلوم الحديثـة والمنـاهج المتطورة[2].

(١) هو عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود.. توفى سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)
(٢) لمزيد من الإيضاح عن هذا الموضوع .. راجع كتاب في منزل الوحي للدكتور محمد حسين هيكل.

وكان من مظاهر التقدم والحضارة .. العمران .. خصوصًا بعد اكتشاف البترول في شرق السعودية، وما ترتب عليه من انتعاش في الحالة الاقتصادية للمملكة.

وكان للحرمين الشريفين العناية الكبيرة لإظهارهما بصورة تليق بعظمتهما ومكانتهما الدينية في قلوب المسلمين.

ويهمنا أن نسجل بكل فخر واعتزاز تلك الإنجازات التي حققها السعوديون في الكعبة والمسجد الحرام سواء في عهد الملك عبد العزيز أو في عهد الملك فهد.

أ- ففي عهد الملك عبد العزيز (في الفترة بين ١٣٧٥-١٣٩٥هـ):

تم ترميم جدران الكعبة وتكسيتها من الداخل بالرخام، وإصلاح سقفها .. كما اهتم بكسوة الكعبة، وبعد أن كانت تصل من مصر .. أصبحت تصنع في مصانع سعودية. ومن مظاهر الاحتفال بكسوة الكعبة حضور الملك والأمراء وأفراد العائلة الذين يقومون بغسل الكعبة وتطييبها بالمسك والعود والعنبر .. كما تم إصلاح الحجر الأسود، وإعادة الشظية التي كان أحد الفرس قد انتزعها منه سنة ١٣٥١هـ.

ونتيجة لزيادة عدد الحجاج والمعتمرين عامًا بعد عام، بسبب تقدم وسائل المواصلات البرية والبحرية والجوية .. كان من

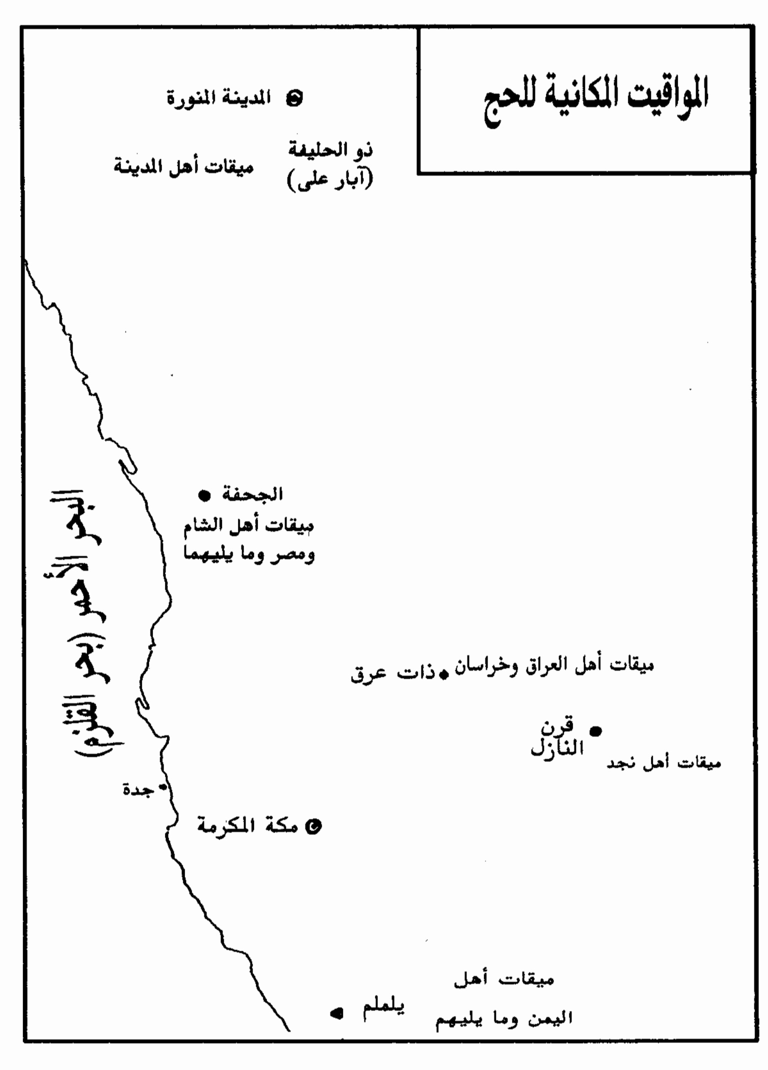
الضروري توسعة المسجد الحرام .. حيث يجد المسلمون فيه دوحة سلام ورحمة.. لذلك تم هدم كثير من الدور حوله، وتوسيع المسجد والأروقة، لتصبح مساحته حوالي ١٦٠,٠٠٠ متر مربع، وزادت عدد أبوابه إلى ٢٢ بابًا، وأصبح عدد مآذنه سبعًا.

كما تم تحويل مجاري السيول بعيدًا عن الكعبة .. بحيث لا تصل المياه إلى المسجد الحرام، وإنما تنصرف إلى مناطق أخرى.

وكان المسعى بين الصفا والمروة تنتهك حرمته السيارات والعربات والدواب، وتداخلت فيه الدور حوله، فتم تحويل الطرق بعيدًا عنه، وفصل بينه وبين الدور والشوارع القريبة منه، وأصبح يتكون من طابقين بطول ٤٢٠ مترًا .. كل طابق ينقسم إلى قسمين .. أحدهما للذهاب إلى الصفا، والآخر إلى المروة.. يتوسطهما طريق خاص ينقسم إلى قسمين أحدهما للذهاب والآخر للعودة .. تسير فيه العجلات الصغيرة التي تحمل الساعين من المسنين والمرضى.

وقد أصبح ارتفاع المسجد ١٢مترًا .. له ثمانية أبواب تصله بخارج الحرم .. بالإضافة إلى أبواب وشرفات تشرف على الحرم، ليسهل على الساعين مشاهدة الكعبة.

وبالنسبة لبئر زمزم، فقد زاد الاهتمام بها، فاتسعت وعُمقت، وتم توصيل مياهها بواسطة مواسير، وتوصيل هذه المياه إلى أسبلة خارج الحرم ليسهل على الحجاج الحصول عليها.



شكل (١٨)

المواقيت المكانية للحج

• جبل النور

• مسجد الإجابة

• مسجد الجن

• المسجد الحرام

• مسجد البيعة

• مسجد أبي بكر

• مسجد الحيف

• جبل ثور

• جبل الرحمة

شكل (١٩)

أهم المعالم في مكة المكرمة.

ب- في عهد الملك فهد[1]:

يعتبر عهد الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود إشراقة جديدة في تاريخ الحرمين الشريفين، لما تحقق فيه من إنجازات وتوسعات وتحسينات .. هي صورة من ملامح التقدم والحضارة التي تعيشها السعودية، وتأكيد واضح للاهتمام بالأماكن المقدسة التي تبرز كواجهة لاحترام واهتمام المسئولين السعوديين بالمقدسات الإسلامية.

وكان من أهم إنجازات الملك فهد في الكعبة والمسجد الحرام والتي بدئ فيها عام ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م):

توسعة المسجد الحرام[2] بإضافة جزء جديد إليه من منطقة السوق الصغير بين باب العمرة وباب الملك، وقد بلغت هذه المساحة ٧٦٠٠٠متر مربع موزعة على أدوار ثلاثة (الأرضي والأول والقبو) مع تجهيز المساحات الخارجية في هذه المنطقة والمنطقة الواقعة شرق المسعى بحيث تكون صالحة للصلاة .. وبذلك بلغت مساحة المسجد الحرام ٣٢٨٠٠٠ متر مربع تتسع لحوالي مليون وثلث مليون من المصلين.

---

(١) تولى مقاليد الحكم عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).

(٢) تعددت توسعات المسجد في عهد الملك فهد بالإضافة إلى عدة إصلاحات قام بها بالنسبة لزمزم وتوصيل مياهها خارج المسجد الحرام، هذا بالإضافة إلى جهود أخرى للمسعى.

ويضم مبنى التوسعة مئذنتين جديدتين بارتفاع ٨٩ مترًا .. تتشابهان في التصميم المعماري والمواد المستخدمة في البناء مع المآذن السبع القائمة، وبذلك أصبح عدد مآذن الحرم تسعًا.

وللعمل على راحة الحجاج، وتسهيل وصولهم إلى سطح التوسعة .. أقيم مبنيان جديدان للسلالم المتحركة. بالإضافة إلى السلالم السابقة، فأصبح عددها سبعة.

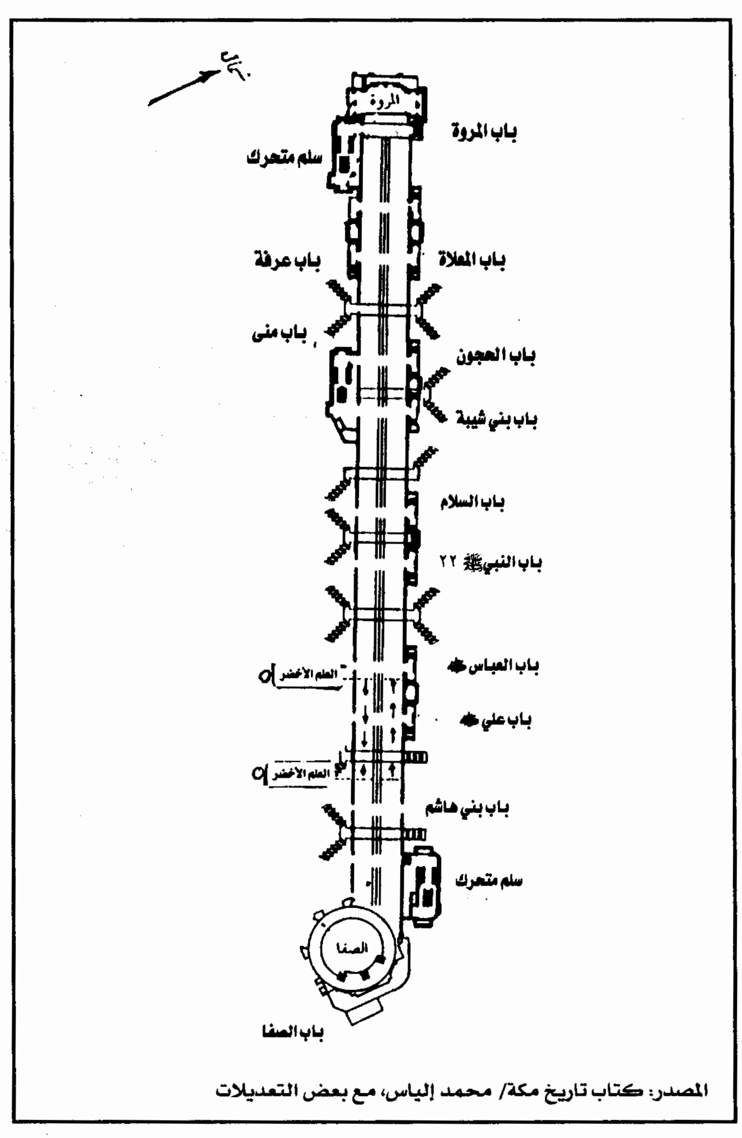
وقد أنشئ في مساحة التوسعة ٤٩٢ عمودًا تحمل الطوابق والأسطح العلوية .. روعى فيها الفن الهندسي والمعماري .. منها المستدير والمربع والسداسي.. كلها مكسوة بالرخام الأبيض.

ومراعاة للنواحي الجمالية والفنية والهندسية، فقد تم تجميل الواجهة الخارجية للمبنى بارتفاع ٢٢,٥٧ متر بالزخارف والرخام والحجر الصناعي، وتبليط الأرضيات برخام مزين بزخارف إسلامية.

وقد أقيمت ثلاث قباب في منتصف سطح التوسعة. ترتفع كل منها ١٢ مترًا.

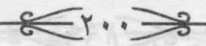
وبالنسبة للأبواب والشبابيك فقد صنعت من الألمنيوم المخروط، وزودت بالمشربيات .. مع مراعاة التجانس بينها وبين الأبواب التي كانت موجودة من قبل، تحقيقًا لوحدة الشكل.

وللمزيد من العمل على راحة زوار البيت وعماره، فقد اهتم المسئولون بالمرافق العامة وأنشئت محطتان للكهرباء.



شكل (٢٠) : المسعى بين الصفا والمروة حديثا.

شكل (٢١)
جسر رمي الجمرات



كسوة الكعبة

* إسماعيل عليه السلام هو أول من كسا الكعبة.

* ثم كساها تبع أحد ملوك حمير من ملوك اليمن.

* كساها الرسول والخلفاء من بعده.

* خلال فترات كثيرة كانت الكسوة تأتي من مصر وقد أنشأ محمد على مصلحة خاصة للكسوة الشريفة.

* ثم أصبحت المملكة العربية السعودية تقوم بعمل الكسوة، وقد أنشئ مصنع لها في مكة في عهد السعوديين.

* كسوة الكعبة من الحرير الخالص المصبوغ باللون الأسود.

* تكسي الكعبة كل عام بكسوة جديدة يوم ٩ من ذي الحجة.

* تكون الكسوة من خمسة قطع.

١- قطعة جهة باب الملتزم.

٢- قطعة جهة الحطيم.

٣- قطعة الجهة المقابلة لباب الكعبة (ظهر الكعبة).

٤- قطعة للجدار بين الحجر الأسود والركن اليماني.

٥- حزام الكعبة.

وكل جزء من هذه الأجزاء مكتوب عليه آيات قرآنية.

مراجع الكتاب

١- القرآن الكريم.

٢- الأحاديث النبوية.

٣- السيرة النبوية، لابن هشام.

٤- محمد رسول الله والذين معه. عبد الحميد جودة السحار.

٥- حياة محمد، د/ محمد حسين هيكل.

٦- في منزل الوحي، د/ محمد حسين هيكل.

٧- الكعبة المشرفة، أمينة الصاوي.

٨- الكعبة على مر العصور، د/ على حسني الخربوطلي، سلسلة اقرأ.

٩- تاريخ مكة المكرمة، محمد إلياس عبد الغني.

١٠- البداية والنهاية، لابن كثير.

١١- تاريخ مكة، للأزرقي.

١٢- مروج الذهب للمسعودي.

١٣- أم النبي للدكتورة بنت الشاطئ.

١٤- على هامش السيرة، د/ طه حسين.

١٥- مجموعة من كتب التاريخ الإسلامي.

١٦- مجموعة أعداد من مجلة الدارة السعودية.

١٧- مجموعة أعداد من مجلة الرابطة السعودية.

فهرس

بالصور والرسوم والخرائط

❊ ❊ ❊


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

كتب صدرت للمؤلف

م	اسم الكتاب	دار النشر	السنة
١	المزاعم الصهيونية في فلسطين	دار المعارف – سلسلة اقرأ	١٩٦٥
٢	سجين المنصورة – ط. أولى	سلسلة الكتاب الماسي الدار القومية	١٩٦٥
	ط. ثانية	دار سنابل	١٩٦٥
	ط. ثالثة	دار ابن لقمان (باسم أبطال المنصورة).	٢٠٠٣
٣	العذراء مريم وميلاد المسيح بين القرآن والإنجيل	دار نهضة مصر	١٩٩٣
٤	مولد محمد ﷺ ط. أولى	دار سنابل	١٩٩٥
	ط. ثانية	دار ابن لقمان	٢٠٠٢
٥	الكعبة والمسجد الحرام من عهد إبراهيم عليه السلام إلى الآن	توزيع الأهرام	١٩٩٧
٦	النبي الشهيد يحيى عليه السلام	توزيع الأهرام	١٩٩٨
٧	الطريق إلى النجاح	توزيع الأهرام	١٩٩٩
٨	خطوات العائلة المقدسة في مصر.	توزيع الأخبار	١٩٩٩

٩	أنبياء عاشوا في مصر	مركز الأهرام للترجمة والنشر	٢٠٠١
١٠	حوارات مع يهودي	دار التوزيع والنشر الإسلامية	٢٠٠٢
١١	دماء على أرض فلسطين	دار الكلمة	٢٠٠٣
١٢	قصص القرآن الكريم	دار التوزيع والنشر الإسلامية	٢٠٠٤
١٣	قطوف من السيرة النبوية	دار التوزيع والنشر الإسلامية	٢٠٠٤
١٤	قصص إسلامية نزلت فيها آيات قرآنية	دار نهضة مصر	٢٠٠٦
١٥	الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة	دار التوزيع والنشر الإسلامية	٢٠٠٦
١٦	سيرة سيدات نساء الجنة	دار نهضة مصر	٢٠٠٦
١٧	أمهات في حياة الرسول	دار نهضة مصر	٢٠٠٧
١٨	مواقف في حياة الرسول	دار نهضة مصر	٢٠٠٧

كتب للأطفال

١	سلسلة حواديت: صدر منها:		
	١- شجرة الآمال.	دار سنابل	١٩٩٦
	٢- الرمال الخضراء.	دار سنابل	١٩٩٨

	٣- كنز جدتي	دار سنابل	١٩٩٨
٢	سلسلة أنبياء الله ورسله للأطفال.	دار ابن لقمان	٢٠٠٤
٣	سلسلة السيرة النبوية مصورة للأطفال (١٥ قصة).	دار التوزيع والنشر الإسلامية	٢٠٠٥
٤	سلسلة أماكن ذكرت في القرآن الكريم (٢٠ قصة).	دار التوزيع والنشر الإسلامية	تحت الطبع
٥	سلسلة القصص القرآني للأطفال مصورة (١٥) قصة	دار ابن لقمان – بالمنصورة	تحت الطبع
٦	تفسير جزء عم الأطفال تفسير جزء تبارك الأطفال	دار ابن لقمان – المنصورة	تحت الطبع

***